

في أمواج القيامة

رواية تحكي مسيرة إنسان
في عالم القيامة الكبرى

تأليف
عبد الرزاق الحچامي



في أمواج القيامة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م



دار الصفوة
للطباعة والنشر والتوزيع
بئر العبد - خلف محطة دياب
تلفاكس : (+9611) 27 49 42 - (+9611) 55 29 00
جوال : (+9613) 80 01 49 ص.ب : 25/91 بيروت - لبنان
E-mail : dar_asafwa@hotmail.com

رواية من عالم لا يفنى

(٢)

في أمواج القيامة

رواية تحكي مسيرة إنسان في عالم القيامة الكبرى

تأليف

عبد الرزاق الحجامي

دار الصفوة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾

[سورة النساء، الآية: ٨٧]

مقدمة المؤلف

غاص الناس كثيراً في أعماق بحار الدنيا وتوغلوا فيها، فجرّهم ظلام التعلّق بها إلى أن يحتجبوا عما سواها، ولا يرون في الوجود حياةً غيرها، وكأنهم خلقوا لها ولأجلها. نسوا الغاية من خلقهم، وغفلوا عن الحياة بعد دنياهم، كالمسافر الذي ينشغل في الطريق عن هدف مسيره وغاية سفره.

وإني لا أدعو أبداً إلى ترك الدنيا والتنفّر منها وهي كما وصفها علي عليه السلام حين قال لرجل ذم الدنيا: (**إن الدنيا دارُ صدقٍ لمن صَدَقَها، ودارُ عافيةٍ لمن فَهِم عنها، ودارُ غِنى لمن تَزَوَّد منها، ودارُ موعظةٍ لمن اتَّعظَ بها، مَسجدُ أحباءِ الله، ومُصلى ملائكةِ الله، ومهبِطُ وحي الله، ومَتجَرُ أولياءِ الله، اكتسَبوا فيها الرحمة، وربِحوا فيها الجنة**)[1]، ولكني أقول إن الدنيا المذمومة تكون كذلك، بل تصبح جيفة طالبها الكلاب إذا تعلّق الإنسان بها، وجعلها هي الغاية والهدف، لا ممر يعبر به إلى حياة الأبد، فيكون مَثَلها مثَل البنزين الذي إن شربته هلكتَ، وإن اتخذته وسيلة لبلوغ ما تروم إليه نفعك.

وكتابنا هذا تعريف بالآخرة التي هي ثمرة الزرع في هذه الدنيا.

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ١٣١



إذا قلتَ لشخص إن وراء هذا الجبل مدينة فاسع للوصول إليها، وكان ذلك الشخص لا يعرف عن تلك المدينة شيئاً، تراه لا يندفع لها بشوق، بل قد يترك المسير نحوها، ويستثقل العمل لأجلها. أما إذا وصفتَ له بساتينها المتشابكة، وأنهارها الجارية، وقصورها الخلابة، ثم أخبرته بوجود كل ما يشتهيه من الثمار الطيبة والأطعمة والأشربة، وأن فيها من الخدم الكثير، وقلتَ له إن ذلك كله مُلك لك وتحت إمرتك، فهل سيكون شوقه للمدينة والسعي لها بنفس الدرجة الأولى قبل معرفتها؟ كلا، بل سوف تراه يبذل غاية جهده، ولا ينام ليله من أجل بلوغها والعيش فيها.

وكذلك يكون حال الهارب من مدينة وصفتَ له وحوشها والأفاعي التي فيها، والنار التي تحرق كل من يدخلها، والعذاب الذي سوف يلاقيه لو مرّ بها، فإنّه لا يهدأ له بال، ولا تغمض له عين، خوفاً من أن يشتبه الطريق ويقع فيها. وقد أشار الإمام علي ﷺ إلى أثر معرفة الحياة الآخرة بما فيها من نعيم وشقاء حين قال: (ألا وإني لمْ أرَ كالجنةِ نام طالبها، ولا كالنارِ نام هاربُها)[١].

والقرآن الكريم وصف المعاد كثيراً حتى أنها شغلت ما يقارب ثلث آياته، وفي العديد منها كان يصف النار ويحذّر مَن تعرّض لها، وفي أخرى يصف الجنة ويشوّق إليها.

وإن فهمنا لألفاظ وصف القرآن للحشر والحساب والجنة والنار، إنما هو على قدر عقولنا القاصرة التي لا تعرف غير مصاديق عالم الدنيا، وكما معلوم لدينا إن مفاهيم الألفاظ تتغير بمرور الزمان فضلاً عن تغير العوالم والنشآت، فكلمة السراج مثلا كانت تُطلق في الحقب الماضية

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ٢٨



على القارورة المملوءة بالزيت وفي فوهتها فتيلة يخرج جزء منها للإشتعال، أما اليوم فتُطلق هذه اللفظة ويراد بها المصباح الكهربائي الذي يُعَلَّق في السقف، ويُضيء دون فتيلة ولا زيت! فهنا بقي المفهوم وتغير المصداق، ويا ترى أي مصداق سيكون لها بعد ألف عام من عصرنا هذا، لا بل قد تتجاوز الملايين!

وعلى أساس ذلك فنحن عندما نتصور وصف القرآن والأحاديث لعالم الآخرة، إنما نتصوره في أدنى درجاته، وأوطأ مراتبه، وتلك هي حدود أذهاننا وتخيلات عقولنا. إذن ليعلم القارئ العزيز أن كل ما نصفه في كتابنا هذا من لذة أو عذاب، فإن حقيقة درجته في عالم الآخرة هي أرقى وأعلى بكثير مما تذهب إليه أذهاننا، وتحس به قلوبنا.

وعلى أساس هذا المبدأ، ومن منطلق التعريف بعالم ما بعد الموت، كتبتُ روايتي هذه بصورة رؤيا يرحل فيها إنسان إلى عالم الآخرة، وكانت على قسمين: الأول منها كتابنا (تحت أجنحة البرزخ)، والذي شمل أحداثا في الدنيا وعالم البرزخ بشكل قصصي جذّاب، كما وأن كثيرا من الأخوة والأخوات قد صارحوني بعد مطالعته على أنه غيّر مسيرة حياتهم، وأنقذهم من الغرق في بحر المادة إلى سواحل التفكر بعالم الآخرة والعمل لها.

أما القسم الثاني من الرواية فكان هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ العزيز، وقد تناولتُ فيه أحداثا لعالم ما بعد البرزخ ليشمل القيامة الكبرى، ومقدماتها، وما بعدها من الخلود الأبدي والوجود السرمدي.

وإني لم أبتكر مطالب الرواية من عندي، ولا ابتدعتها من قدرتي، بل كانت مبنية على الأسس العقائدية لعالم ما بعد الموت، والمستوحاة من



القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، مستنيراً بآراء العلماء ونظريات الباحثين. كما إني لم أترك بيان سند المطالب المذكورة، ولم أبخل في ذكرها، وقد رأيتُ من المناسب تدوينها في الهوامش السفلى كي لا تتقطع أحداث الرواية بها، ولا يفقد القارئ لذة مطالعتها.

وطلبي ممن يطالع كتابي هذا من الإخوة والأخوات أن لا يبخلوا بإرسال أي رأي أو نقد يرونه مناسبا على بريدنا الالكتروني، كما إني لا أمانع من إعادة طباعة الجزأين ونشرهما بشرط الحفاظ على محتواه دون أي تغيير.

وعسى أن يكون عملي وإياكم هذا حسنة جارية تعيننا، وتكون زاداً لنا في سفرنا الأبدي إن شاء الله...

عبد الرزاق الحچامي

٢٠١٠/٦/٥

البريد الإلكتروني:

azq967@gmail.com



الفصل الأول

أكوان مضطربة



أفِق من نومك يا سعيد، أما علمتَ باقتراب قيام الساعة والقيامة الكبرى؟ كيف تنام رغدا في جنان البرزخ، وبين أحضان الحور، وقد تحقق أول شرط من أشراطها!

نداءٌ هزّ كياني كله ولم أكن نائما، بل غارقاً في بحر من الفكر، سابحاً في أمواج ذكريات عالمٍ مضى، عالم الدنيا الذي انقضى وكأنه لم يكن إلا ساعة، أو أقل الساعة.

كنتُ أتذكر لحظات الموت، وكيف انتقلتُ من عالم الضيق والفناء، إلى الوسعة والبقاء... كنتُ أتذكر أيام البرزخ التي قضيتها، ومراحل العذاب والنعيم فيه، وها هي آلاف من السنين مضت وتمضي والجميع بانتظار القيامة الكبرى.

كانت فرائصي تضطرب، وخوفي يتعاظم كلما مرّ على فكري أمر القيامة والحساب، برغم أني أعيش في جنات ونعيم عالم البرزخ[١]،

---

(١) عالم البرزخ هو الفترة التي تتوسط بين عالم الدنيا وعالم القيامة الكبرى، وهو أرقى درجة من الدنيا وأدنى من القيامة. تعيش فيه أرواح الأموات بأبدان لطيفة شفافة، ويكون فيه ثواب وعقاب جزئي على الأعمال والعقائد والملكات، وفيه إما أن يعيش الإنسان داخل جنة ونعيم أو في عذاب نار اليم.



وبرغم القصور والبساتين، والحور والخدم من الملائكة الذين سخرهم ربي لخدمتي، وليس لديهم شغل شاغل غير ذلك.

مرّت سنين وسنين، وكلما تحقق شرط من أشراط قيام الساعة في عالم الدنيا، تحدث ضجة كبرى بين سكان عالم البرزخ، وترى الخوف والاضطراب يغمرهم، وكثير منهم (حتى أصحاب الدرجات العالية) كانوا يعيشون حالة بين الخوف من الساعة والحساب، وبين الرجاء بالنجاة من أهوال ذلك اليوم العظيم.

ومرّت الأيام، وتشابكت الأحداث، وسالت دماء كثيرة على الأرض حتى غيّرت لون أنهارها، بل أصبح اللون الأحمر هو اللون السائد فيها...

أحسستُ بيقين لا يخالطه الشك بأن الساعة آتية عن قريب ولا ريب فيها، خصوصا بعد أن كسفت الشمس في وسط رمضان، وخسف القمر في آخره[١]، وخرج أقوام يأجوج ومأجوج منتشرين في الأرض، وهم من كل حدب ينسلون[٢].

وتوالت أحداثٌ وآيات عجيبة غير مأهولة على أهل الأرض كان آخرها أن أشرقت الشمس من مغربها، وخرجت دابة من الأرض تكلمهم

---

(١) يمكن للقارئ مراجعة كتاب موسوعة الإمام المهدي/ المجلد الثالث للسيد محمد صادق الصدر، حيث أورد فيه علائم الظهور وقيام الساعة التي ذكرناها أعلاه مصحوبة ببحث وتحقيق جيد حولها.

(٢) الأنبياء/ ٩٦ ـ ٩٧: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.



أن الناس كانوا بآيات الله لا يوقنون[1]، حينها تحقق مصداق الآية الكريمة ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[2]... أجل لقد انتقض الشك باليقين، وانتهى تكليف سكان الأرض فانتشروا فيها مرعوبين مذهولين، لا يعلمون ما يفعلون، وإلى أي وجهة يتوجهون!

أما الأرض فقد زُلزِلت زلزالها، وأخرجت أثقالها، وقال الإنسان ما لها[3]، هنالك نطقت بإذن ربها، وقالت: إنما هو أمر الجبّار إذ أوحى لها بأن تُخرج ما في بطونها من أثقال وأسرار، وأن تستعد لانقلاب وتغيّر شامل فيها، حينها تيقن الناس أنها النهاية ولا مناص منها.

واستمرت أحداث الأرض زلزال بعد زلزال، حتى ابتلعت معظم سكانها، وغاصوا في أعماقها الملتهبة، فلم تر لهم باقية.

كل شيء يشير إلى قرب حدوث تغيّر شامل وواسع في عالم الوجود، وبات من بقي من الناس حيارى سكارى، يرتطم بعضهم ببعض، وكلٌّ يفكر في نفسه ومصيره، ويتخلى عما سواه، حتى الأم تخلّت عن ولدها، والمرضعة عن رضيعها، بل لشدة الخوف من العذاب المُرتقب وضعت كلُّ ذات حمل حملها، إذ كان يسقط الجنين من بطن أمه ولم تكن قد اكتملت بعد خلقته[4].

---

(١) النمل/ ٨٢: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

(٢) الأنعام/ ١٥٨

(٣) الزلزلة/ ١ ـ ٤: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾.

(٤) الحج/ ٢: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.



أجل إنها مقدمات الساعة ولا شك في ذلك، فأصابني خوف كبير ورعشه شديدة. وكلما التقيتُ جماعة من سكان البرزخ، أرى صورهم قد تغيرت، واصفرت خوفاً من قيام الساعة، حينها يعظم هولي مما سيؤول إليه مصيري، وما رأيتُ أحداً مطمئن القلب فيسلّيني ويهوّن علي ما سألاقيه في المستقبل المجهول، ثم...

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[١].

إنها نفخة إسرافيل الأولى لإماتة خلق الله، إذ انقطعت الحياة عن كل شيء، وماتت جميع الموجودات والكائنات، فلم يبق في عالم الوجود أثر لها، وباتت الأرواح ساكنة صامتة وفي داخلها فزع واضطراب عظيم، إلا أولئك العارفون بحقائق الوجود وأسراره، وقلوبهم غريقة بالمعرفة والمحبة الإلهية.

لم يسلم حتى جبرائيل وميكائيل من صعقة الموت، بل حتى اسرافيل وعزرائيل الذي كان آخر من بقي فقال له الله: مت يا ملك الموت، فمات!

لم تتوقف الأرض عن امتثال أوامر ربها، إذ ألقت ما فيها وتخلّت، واندكّت أجزائها دكّا[٢]، وتشققت أنهارها، وسُجّرت بحارها فالتهبت، وكأن الماء أصبح وقودا لاحتراقها[٣]، ثم طغى ماءها فوق الأرض منبئاً بحدوث سيل عظيم بعد هطول أمطار غزيرة كثيفة.

---

(١) الزمر/ ٦٨

(٢) الفجر/ ٢١: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾.

(٣) التكوير/ ٦: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.



وأما الجبال فقد تحرّكت، ونُسفت نسفاً، حتى أصبحت كالغزل المنفوش، والرمل المنثور الذي تناثرت ذرّاته هنا وهناك، ثم تطايرت في الفضاء، وأصبح مكانها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[1].

واستمر الكون في تغيراته حتى شملت الأجرام السماوية، إذ خسف القمر، وطغت ظلمته على نوره، وجُمع الشمس والقمر حتى تلاطما فيما بينهما، فاضمحل ضياء الشمس وتلاشى وتلاشت بعده[2]، وانكدرت النجوم، وراحت الكواكب والمجرّات ترتطم فيما بينها بعد أن اختل نظام حركتها، واضطربت قوانينها التي كانت حاكمة عليها، فتراها تلتهب ثم تتناثر في الفضاء.

أما السماء والتي هي مثل السقف المحفوظ والمُحكم يحيط بهذا الكون، لم تسلم من ذلك التغيير أيضاً، إذ عمّ فيها دخان عظيم مما زاد على الظلمة ظلمة، فلا شمس تشع، ولا قمر ينير، ولا نجوم برّاقة، كل شيء ظلام في ظلام!

وفي هذا الوسط من الظلمة المُعتمة انطوت السماء كطي السجل للكتب[3]، فأخفت ما في داخلها بين طيّات صفحاتها، ولعلها عادت إلى خزائن الغيب مع ما فيها من أسرار الكون ومخلوقاته.

---

(١) طه/ ١٠٥ ـ ١٠٧: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾.

(٢) القيامة/ ٧ ـ ١٠: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾.

(٣) الأنبياء/ ١٠٤: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.



سكنت الحركات، وخمدت الأصوات، وخلت من سكانها الأرضُ والسموات، وساد صمت وهدوء مطلق في أرجاء الكون، إذ بقيت السموات خالية من أملاكها، والأرض من إنسها وجنّها وطيرها وهوامها، وبقي المُلك لله الواحد القهار، المتصرف في المُلك والملكوت، وكأن ربي يسأل خلقه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ..﴾[1].

لا أحد يُجيب، بل لا أحد غير الله ينطق حتى يجيب ويقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[2].

طال سُبات الخلائق وسكونها، والله أعلم كم كانت مدته، حتى حان ذلك اليوم الذي سمعنا فيه صوت نفخة الصور الثانية وصيحته، إنه إسرافيل عاد بعد أن أحياه الله لينادي في خلقه: أن قوموا ليوم الحشر والحساب، ولكن أي صيحة كانت! بل أي نداء هذا الذي يُحيي الأموات من أولهم إلى آخرهم، ويخرجهم من الأرض قياماً ينظرون! ومن الأجداث مسرعين، يرتطم بعضهم ببعض، أبصارهم خاشعة، وقلوبهم خائفة مضطربة، كأنهم جراد منتشر[3] إلى ربهم ينسلون.

كل واحد من الخلق كان يحس أن الصيحة والنداء قريب جداً منه، بل قد تكون في داخله، فهي كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾[4].

حقاً انه منظر مرعب ومهول أن تخرج كل الأجيال من البشر منذ خلق

---

(١) غافر/ ١٦

(٢) غافر/ ١٦

(٣) القمر/ ٦ ـ ٧: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾

(٤) ق/ ٤٢



آدم وحتى قيام الساعة في وقت ومشهد واحد! والكل يسوق بنفسه مسرعاً مضطرباً، والبعض زاحفاً... إلى ساحة المحشر والحساب.

أسرعتُ مع هذا الجمع العظيم من الخلق، وبين الحين والآخر أتعثر، فأقع ذليلاً على وجهي، وأحس بأقدام الخلق فوقي، ولكن سرعان ما أنهض قائماً بمساعدة مخلوق كان يرافقني منذ خروجي من قبري، ولشدة الزحام والاضطراب لم أتعرف عليه، بل ما تمكنت من رؤيته بصورة تسمح لي بمعرفته.

كنتُ أرى الكثير ممن بُعثوا ونُشروا معي وقد تأججت في أفواههم نار، وهم يتعثرون، وتحت الأقدام يُسحقون. هم كالأقزام في صغرهم، وقد لا ترى لهم أثر حتى يمر كل هذا الجمع العظيم فوقهم[1]. والعجيب أن البعض منهم كلما أراد القيام أركسه مخلوق قبيح كان يرافقه ليلقيه على الأرض مرة أخرى! فقلتُ: بسم الله، هذا أول مشهد من مشاهد الذلّة والعذاب.

وسط هذه الأوضاع والغبرة، وبين وجوه الخلق المتفاوتة، رأيتُ شخصاً يشع منه النور، ولا تبدو عليه آثار التعب والإرهاق، سوى الدهشة التي كانت تظهر في ملامح وجهه. نظرتُ إليه فبهرني جماله وهيبته، وعجبتُ منه إذ لم يكن يسرع في مشيه، وفي الوقت نفسه لا يتخلف عن غيره! سألته ونفسي تلهث من عناء المسير، وغبرة الطريق:

ـ هل تعلم ما الذي حدث؟ وإلى أي شيء يُساق بنا؟

---

(١) ميزان الحكمة/ ج٣: (عن رسول الله ﷺ قال: يبعث الله يوم القيامة ناساً في صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم، فيقال ما هؤلاء في صور الذر؟ فيقال هؤلاء المتكبرون في الدنيا).



تمعّن في وجهي ثم أجاب:

ـ أرى في صورتك ملامح الإيمان والتقوى، ولكني أيضاً أرى نورك ضعيف لا يكاد يضيء لك الطريق.

نظر إلى الجمع العظيم، ثم عاد ليقول:

ـ إن الله بعثنا بعد أن أماتنا موتة البرزخ، ونحن الآن في يوم البعث الذي وُعِدنا به لنُساق إلى الحشر والحساب، ثم لتُجزى كل نفس بما كسبت، ولا يظلم ربك أحداً.

قلتُ:

ـ سبحان الله! ما أقصر لبثنا في عالم الدنيا والبرزخ، وكأننا لم نقضِ فيهما إلا ساعة أو أقل الساعة[1].

قال:

ـ يبدو لك ذلك، والواقع أنها لحظات، بل أقل من لحظات لو قيست مع حياة الأبد التي أمامنا، ولكنها في نفسها كانت كافية لأن ينال الإنسان فيها كماله الذي أراده الله له في عالم الأبد.

تذكرتُ آيات من القرآن تشير إلى الموقف الذي نحن فيه، فسألته:

ـ أنتَ من أهل العلم والإيمان، أليس كذلك؟

قال:

ـ وكيف علمتَ هذا؟

قلتُ:

---

(١) الأحقاف/ ٣٥: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.



ـ لا أعلم أنت من أي أمة وأي جيل، ولكن الله تعالى أخبرنا في كتابنا القرآن بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١)، فعلمتُ عندما أخبرتني بيوم البعث، وبحقيقة مقدار اللبث في عالم الدنيا والبرزخ أنك من الذين أوتوا العلم والإيمان.

توقفتُ عن الكلام، ثم نظرتُ إليه متسائلاً:

ـ قل لي بالله عليك من أي أمة أنتَ؟

ـ إنني من أمة النبي موسى سلام الله عليه، كنتُ قد صدّقته، وآمنتُ بما أتى به من الكتاب، واتبعتُ سبيله رغم ملاحقة فرعون وأعوانه لنا من مكان لآخر، ومن بلد إلى بلد، حتى قُتلتُ صريعاً، وأُريق دمي على طريق الحق والإيمان.

أصابتني حسرة أن لم أكن مثله وفي درجته ونوره، فقلتُ له:

ـ إذن أنت من العلماء المجاهدين بعلمهم على طريق الحق والتوحيد.

استقر الجميع في ساحة الحشر، وهي أرض بيضاء مستوية، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ولا ربوة، ولا تلّة يتوارى الإنسان خلفها عن أعين الناس، بل ولا حتى حفرة يدسُّ الإنسان فيها نفسه هرباً من الغرماء والخصماء! هي صعيد واحد لا تباين فيها، ولا زرع فيها، ولا جبال، ولا أودية ولا سهول، بل ممدودة مد الأديم(٢).

نظرتُ لما حولي فرأيتُ أحسنهم حالا من وجد لقدمه موضعا،

---

(١) الروم/ ٥٦

(٢) [تفسير الميزان] للسيد الطباطبائي/ ج٢٠/ ص٢٤٧: (عن رسول الله ﷺ قال: تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه).



ولنفسه متّسعا، ورأيتُ من البشر رجالاً ونساءً ما لا يُحصى عدده، ولا نهاية لحدوده، وهم في صور مختلفة: فبعضهم ذات صور قبيحة ومهولة موحشة، أبدانهم عراة لا يغطيها ولا يسترها شيء، وهم في حالة يكاد الخجل يذيبهم، والذلة والحسرة تقتلهم، ولا ملاذ لهم فيستترون فيه، أو يحتجبون به عن أنظار غيرهم.

كان بعض منهم على صورة القردة، وبعض آخر على صورة الخنازير، وبعضهم منكّسون على وجوهم وقد علت أرجلهم رؤوسهم وهم يُسحبون عليها، وبعضهم عُمي يترددون، وبعضهم صم وبكم، وبعضهم يمضغون ألسنتهم وهي مدلاّت على صدورهم، ويسيل القيح من أفواههم فيتقذرهم أهل المحشر، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلّبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد نتناً من الجيفة، بينما هناك آخرون ملبَّسون جباباً سابغة من قطران نار لاصقة بجلودهم[1].

وفي الوقت نفسه كنتُ أرى البعض الآخر على صور جميلة متفاوتة، كلٌّ حسب درجته وكماله الذي اكتسبه في عالم الدنيا، وهم يرتدون ألبسة متغايرة فيما بينها. قلتُ سبحان الله! ما هذا التفاوت في خلقه؟ وتساءلتُ مستغربا عن أي أرض أو سماء يمكن لها أن تسع كل هذا الحشر العظيم؟!

التفتَ نحوي شخص يبدو أنه من أهل الإيمان، وكتابه القرآن، فقال:

---

(١) [بحار الأنوار] للعلامة المجلسي/ ج٧/ ص٨٩: (سأل معاذ بن جبل رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، فقال ﷺ: يا معاذ سألت عن عظيم من الأمر، ثم أرسل عينيه ثم قال: تُحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً، قد ميّزهم الله تعالى من المسلمين وبدّل صورهم، فبعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، و...).



ـ أما قرأتَ في القرآن: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1]، فأرض المحشر وسماءها، ليست كسماء وأرض الدنيا التي قضيتَ عمرا فيها، بل كل شيء تبدل وتغير، والقوانين في عالم القيامة هي غير قوانين ونظام عالم الدنيا والبرزخ، وأحكام الزمان والمكان التي كانت مهيمنة عليها لا وجود لها هنا.

بهرني نور وجهه المشع، ووجدتُ في ذلك فرصة للسؤال منه، فسألته:

ـ أخبرني، كم سيطول وقوفنا في عرصة المحشر؟

أجاب قائلاً:

ـ إن للقيامة خمسون موقفاً، وكل موقف يستغرق ألف سنة، أما قرأتَ في القرآن: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2]، وأهوال هذه المواقف وشدتها مرتبط بدرجتك التي حُشرت عليها، فإن ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[3].

صمتَ قليلاً، ثم قال:

ـ أراك وقد حُشرتَ على هيئة إنسان، ولباس التقوى يسترك، ولكني ألاحظ نورك ضعيف، قد لا يهديك في ظلمات القيامة والصراط.

أصابني هول مما سمعته منه، وحسرة على ما قصّرتُ به في عالم الدنيا، إذ لم أرفع درجتي بأعمالي وملَكاتي، ولم أوصلها إلى مراتب

(١) إبراهيم/ ٤٨
(٢) المعارج/ ٤
(٣) الأنعام/ ٣٢



الإنسان الكامل الذي يشع نوره بين العباد في يومٍ يجمع الله به الأولين والآخرين.

بكيتُ بكاءً شديداً، فاختلطت دموعي مع العرق الذي راح يجري جرياناً من بدني، إذ أصبحت الشمس محرقة بعد أن اقتربت شيئاً فشيئا فوق رؤوس العباد، وانشغل كل واحد بهمّه وغمّه، وأصبح لا يبالي بغيره.

وإذ أنا في ذلك الوضع من الحزن والقلق، وبّختُ نفسي وقلتُ لها: يا نفسي أصبحتِ كما قال إمامي زين العابدين في دعائه: **(أنظر مرة عن يميني وأخرى عن شمالي، إذ الخلائق في شأنٍ غير شأني، لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شأن يُغنيه، وجوهٌ يومئذٍ مسفرة ضاحكةٌ مستبشرة، ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرة ترهقها قَتَرة...)**[1].

لفت نظري مخلوق كان حسن الوجه، جميل المنظر. اقترب مني وقد علت الابتسامة على وجهه، ثم نادى باسمي!! نعم، سمعته ينادي ويقول:

ـ سعيد، ألا تعرفني؟

نظرتُ إليه، وهو أول من ينادي باسمي في ساحة المحشر، ولكني لم أتعرف عليه، لذا أجبته مستغربا:

ـ كلا، إن أهوال القيامة أنستني كل شيء، فمن تكون؟

ـ أنا الذي كنتُ من البعث إلى المحشر أُنجيك كلما صرتَ تحت أقدام العباد، أنا الذي كنتُ أنير لك الطريق كلما دخلتَ في الظلام، أنا

---

(١) مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين عليه السلام.



الذي كنتُ أزيل عنك اليأس، وأبشّرك بالجنة، وادعوك إلى ترك القنوط من رحمة الرحمن[1].

ـ آه، أشكرك كثيراً، ولولا أنت لكنتُ الآن في أسوء حال. قل لي بالله عليك مَن أنت، فإني أحب أن تكون دائماً برفقتي.

ـ سأكون كذلك إن شاء الله، إلا في المواضع التي لا يُسمح لي بتجاوزها.

قلتُ له متردداً:

ـ هل.. هل أنت عملي الصالح؟

قال:

ـ نعم.

كادت روحي تحلّق من فرحة لقائه، فعانقته طويلاً، ثم نظرتُ إليه مستغربا تغير صورته عما عهدتها عليه، وقلتُ له:

ـ أرى صورتك وهيئتك قد تغيرت، وهي ليس كما عهدتها يوم كنتَ معي في عالم البرزخ!

أجاب، وقال:

ـ في البرزخ كانت تظهر بعض تجسمات حقائق أعمالك، وكنتُ أنا خلاصة لها، أمّا في عالم القيامة فتظهر جميع أعمالك، ودقائق إحساساتك، وملكاتك التي كانت معك في الدنيا، أمَا قرأت في القرآن:

---

(١) الكافي/ ج٢/ ص ١٨٨: (قال أبو عبد الله عليه السلام في حديث طويل: إذا بعث الله المؤمن من قبره خرج معه مثال يقدِم أمامه، وكلما رأى المؤمن هولاً من أهوال يوم القيامة قال له المثال: لا تفزع ولا تحزن وأبشر بالسرور والكرامة من الله عز وجل...).



﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1].

ـ إذن يبدو من كلامك أنني سألاقي الكثير من تبعات أعمالي السيئة ومصائبها.

ـ نعم يا سعيد، ومما يزيد الطين بلّة أن القيامة ليست كالبرزخ، إذ لم يبق مخلوق في الدنيا حتى يتصدّق نيابة عنك، أو يذكرك بذكر أو دعاء، بل تلاشت الدنيا وما فيها، وأنتَ الآن في نشأة أخرى لها نظامها الخاص بها، وقوانينها التي تميّزها عن غيرها، وهذه القوانين الجديدة مما لم ترها من قبل، بل لم تكن قادراً على تخيلها إن سمعتَ عنها...

---

(١) الزلزلة/ ٦ ـ ٨



الفصل الثاني

صحراء محرقة



أربعون عاما مضت وحالة أغلب من في المحشر سيئة للغاية، إذ زادت حرارة الشمس باقترابها، ولشدة حرارتها أصبح العرق يجري من أبداننا جريان الماء من مصبّاته! أما الأرض فتكلمتْ، وأخبرت من في المحشر أنها أُمِرت بعدم السماح لعرَق العباد أن ينفذ فيها، مما زاد ضجيج أهل المحشر واستيائهم.

واشتدت حرارة الشمس أكثر وأكثر بركوبها فوق رؤوسنا، وهي ليست كشمس الدنيا، بل أشد وأقسى وتنفذ أشعتها إلى الأعماق، ولا يمكن التستر أو التهرب منها. أما الأرض فقد تمسكت بأمر ربها، وبلغ العرق لدى البعض منا حتى قدميه، ومنهم من بلغ ساقيه، ومنهم من بلغ بطنه، والبعض الأخر إلى رقبته، وازداد الصراخ والعويل وما من مغيث...

خطر على فكري أمر الشفاعة، ولكن شفاعة في هذا الوقت ولجميع أهل المحشر تحتاج إلى شفيع يكون أهلاً لها، وذي درجة عالية من المنزلة والقرب من الله.

ويبدو أني لستُ الوحيد الذي طرق فكري هذا الأمر، إذ رأيتُ أهل المحشر يتوجهون إلى ذوي الأنوار المشعة، فاتجهتُ أنا أيضاً نحو أحدهم، وطرحتُ عليه أمر الشفاعة لنجاتنا من هذا الموقف، فقال:



ـ أنت تعلم أنني لستُ ذا درجة عالية في المقام حتى أتمكن من الشفاعة لنفسي، فضلاً عن غيري.

ـ وماذا نفعل، وإلى أي وجهة نتوجه؟

ـ علينا بالأولياء المُخلَصين.

قلتُ له مستغرباً:

ـ ألستَ أنت منهم؟!

كأنه تحسّر على أمر ما، ثم قال:

ـ إنني من الأولياء المخلِصين لله، وأعلى من مقامي الأولياء المخلَصين الذين استخلصهم الله لنفسه بعد أن رأى صدق إخلاصهم له.

انطلقنا مع هذا الولي وجمع غفير معنا إلى أحد أولياء الله المخلَصين...

كنتُ ألاحظ خلال مسيرنا ما تبقى من أهل المحشر، فرأيتُ ذوي الأبدان العارية، والصور القبيحة، لا يتجرءون على الذهاب معنا، بل لشدة خجلهم وذهاب ماء وجههم نكسوا رؤوسهم، وبعضهم من ذوي الدرجات السفلى لا يتمكنون من القيام، فضلاً عن المسير، فتراهم قد غرقوا في عرق أهل المحشر، وهم في كل مرة يخرجون رؤوسهم ثم يدخلونها، وهذا هو حالهم، وأول مراحل عذابهم.

اقتربنا من أحد أولياء الله المخلَصين، إذ دلنا عليه نوره المشع الذي طغى على أنوار الأولياء الذين كنا برفقتهم. دنونا منه أكثر وأكثر حتى بان بياض وجهه، وتألق ضياء صورته، وهيبة وقفته و..

يا إلهي!.. ماذا أرى! أحقيقة هو أم خيال! توقفتُ عن التقدم نحوه، فالتفتَ لي ولي الله الذي أتيتُ معه، وقال:



- ما الذي حدث؟ أراك مندهشاً، مستغرباً، مضطرباً!

أجبته بدموع جارية:

- إنه مؤمن، إنه صديقي مؤمن، إنه..

آه، بأي وجه سألاقيه، وبأي مقام أتقابل معه، لا، لا أريد..

أراد الولي أن يهوّن علي موقفي، فقال:

- إنك بحمد الله على صورة إنسان، وعليك لباس التقوى يسترك، فماذا تقول في غيرك ممن تخلّفوا عنا من أهل المعاصي والذنوب؟

نظرتُ إلى بدني ولباسي، وقلتُ الحمد لله على كل حال، ولولا هداية ربي لكنتُ أسوأ من ذلك.

نظرتُ إلى مؤمن مرة أخرى، وتطلعتُ إلى بهاء وجهه، ورأيتُ عرق أهل المحشر لم يغط سوى قدميه، وجزء يسير من ساقيه.

يا إلهي إنه يتقدم نحوي، لا بد أنه قد علم بقدومي، ماذا أفعل، آه، إنه يقصدني ولا يقصد غيري، نعم، ها هو يقف أمامي...

عانقني وضمني إلى صدره، وقال:

- لا يا سعيد، لماذا تهم بالهرب مني؟ ألستُ أنا الذي أدخلتك خيمة الإسلام في الدنيا بعد أن رأيتك أهلاً لها؟ ألستُ أنا الذي رافقتك، وما تخليتُ عنك عند فراقك الدنيا ونزولك في منزلك البرزخي، كيف أتخلى عنك الآن، ألم يقل الله تعالى في قرآنه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]، وأنا وأنت بحمد الله من المتقين، رغم

---

(١) الزخرف/ ٦٧



اختلاف مقاماتنا، وإن شاء الله تعالى سأشفع لك في مواضع عدة، لترفع من مقامك الذي أنت عليه الآن.

كنتُ أنصتُ لكلامه والعَبرة تحرقني، والدمعة تغلبني، وكلما نطق بكلمة يعظم بكائي، ويشتد تقاطر دموعي. أمسك بي وأوقفني بجنبه ليتحدث مع أولياء الله بعد أن طرحوا عليه أمر المأزق الذي يمر به أهل المحشر، فقال:

ـ إن أمراً كهذا لا أتمكن منه، وقد طرحته مع أمثالي في المقام، واتفقنا على أن ننطلق إلى أهل مقامات الرضا الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ونرى ما يمكن لهم أن يفعلوه.

طلب الحاضرون مرافقته، ولكنه تعذر وقال:

ـ إن المقامات التي سوف ننطلق إليها ليس من الهيّن وصولها إلا لأمثالي في الدرجة والمقام، وسوف أبذل ما يسعني إن شاء الله لتحقيق ما طلبتموه مني.

انصرف الكثير من الحاضرين معي، ثم التفتَ مؤمن لي وقال:

ـ ما من إنسان في عالم القيامة إلا وهو محتاج لشفاعة من هو أعلى منه في الدرجة والمقام، حتى الأولياء والأنبياء.

ـ وكيف ذلك؟ وهل هناك نبي يدخل النار، أو يتعرض إلى عذاب كي يحتاج إلى الشفاعة!

ـ الأنبياء على تفاوت في الدرجة، أما قرأتَ في القرآن: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[1]، فكل

---

(١) البقرة/ ٢٥٣



نبي منهم يحتاج شفاعة نبي أعلى منه كي يرفع درجته، لا أن ينجيه من النار أو العذاب.

سألته مستغربا من كلامه:

ـ حتى أنبياء أولي العزم؟

ـ نعم حتى هؤلاء، فهم بحاجة إلى شفاعة الخاتم ﷺ، وأظن أن مشكلة أهل المحشر ليس لها إلا الرسول الأعظم الذي ختم مقامات القرب إلى الله بمقامه، وبلغ موقعاً لم يبلغه أحد قبله ولا بعده، فهو الذي قال القرآن بشأنه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[1].

طلبتُ منه مرافقته في رحلته، فتبسم وقال:

ـ عزيزي سعيد، إن أثر وتبعات كل شيء في عالم القيامة تكويني لا اعتباري، فلا يمكن السماح لك بمرافقتي، فضلا عن غيرك من أصحاب الدرجات الدنيا، إذ إن درجتك التي اكتسبتها في عالم الدنيا والبرزخ لا تمكّنك من ذلك.

عدنا إلى مواضعنا على أمل أن تصلنا أخبار مسيرة مؤمن وأمثاله من المخلَصين، وفعلاً علمنا بعدها أن الأمر قد وصل إلى نبي الله آدم، ثم قطع مراحل أخرى، ومراتب عدة حتى صار لأن ينطلق الأنبياء من غير أولي العزم إلى نبي الله نوح الذي قال لهم:

ـ أن هذا الأمر عظيم وأنا لستُ له، اذهبوا إلى نبي الله إبراهيم.

ذهبوا إلى نبي الله إبراهيم، فدلّهم على نبي الله موسى الذي دلّهم على نبي الله عيسى، وعندما وصلوا إليه قال لهم:

(١) النجم/ ٨ ـ ٩



ـ إن الله تعالى خص مقام المحمودية للرسول الخاتم محمد، وهو أهل لهذا الأمر.

جمعوا أمرهم، وانطلقوا إلى الخاتم ﷺ، وقالوا له:

ـ يا من ختم الرسالات برسالته، والمقامات بمقامه، يا من هو أولنا إسلاماً، وأرفعنا درجة، وأوجهنا عند الله، يا من أقر بالعبودية لله وآدم بين الروح والجسد(١)، يا من يشهد على الشهداء ونحن الشهداء(٢)، إشفع لنا ولأهل المحشر عند الله، فإن الحرارة كادت تذيب أبدانهم، والعرق يصل إلى أعناقهم، بل إلى أفواه البعض منهم.

أجابهم الرسول الخاتم، وهو أول من يجيب بالإيجاب، إذ قال: أنا لها يا أنبياء الله وأولياءه.

وانطلق الخاتم ﷺ، وسجد لله سجدة أطال فيها، وما رفع رأسه الشريف منها حتى قيل له: يا محمد إسئل تُعطى واشفع تُشَفّع، فقال يا رب أمتي أمتي(٣).

---

(١) [كنز العمال] للمتقي الهندي/ ج١١: (عن رسول الله ﷺ قال: كنتُ نبيا وآدم بين الروح والجسد).

(٢) إن كل نبي يشهد على أمته يوم القيامة، وخاتم الأنبياء ﷺ يشهد على الأنبياء الأولين والآخرين، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله في سورة النساء آية ٤١: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

(٣) المضمون العام لهذه الحادثة مستوحاة من الرواية الواردة في بحار الأنوار للعلامة المجلسي/ ج ٨/ ص ٤٨ - ٤٩: (عن أبي إبراهيم ﷺ في قول الله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين عاما، ويؤمر الشمس فيركب على رؤوس العباد ويلجمهم العرق، ويؤمر الأرض لا تقبل من عرقهم شيئا، فيأتون آدم فيتشفعون منه فيدلهم على نوح، ويدلهم نوح على إبراهيم، ويدلهم إبراهيم على موسى، ويدلهم موسى على عيسى، ويدلهم عيسى فيقول: عليكم بمحمد خاتم البشر، فيقول محمد: أنا لها، فينطلق حتى يأتي باب الجنة فيدق، فيقال له: من=



هنالك ارتفعت الشمس من على رؤوس العباد، ونفذ العرق في الأرض، وتوغل فيها بعد أن أذن لها بذلك، وعاد الرسول الخاتم، وكل من في المحشر ينطق باسمه، ويحمده على شفاعته، ويغبطه على مقامه ومنزلته، وذلك قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[1].

بعد أن رُفع البلاء العام الذي كان قد شمل عموم أهل المحشر بشفاعة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، بقي كل شخص منا يعيش عذاب نفسه، وحسرة أعماله. والذي يزيد من العذاب عذاباً، أن كل شخص منا كان معروفا بين أهل المحشر بملامحه أنه فلان الذي كان في الدنيا، رغم تغير صور وأبدان البعض منهم إلى صور قبيحة منبوذة، كهيئة الخنازير والقردة وأمثالها[2]، والبعض تفوح منهم رائحة كريهة نتنة تجعل أهل المحشر يفرون منهم، وذلك يجعلهم في عزلة وذلة، منبوذين لدى الخلائق أجمعين.

كنتُ أجول في عرصة المحشر عسى أن أجد ما ينفّس كربتي في أول موقف من مواقف القيامة، فأرى بعض أصحاب الدرجات السفلى يتمسّكون بأطرافي، ويتوسلون بي لنجاتهم، أو على الأقل لتأمين لباس

=هذا؟ ـ والله أعلم ـ فيقول: محمد، فيقال: افتحوا له، فإذا فتح الباب استقبل ربه فيخر ساجدا فلا يرفع رأسه حتى يقال له: تكلم وسل تعط واشفع تشفع، فيرفع رأسه فيستقبل ربه فيخر ساجدا فيقال له مثلها، فيرفع رأسه حتى أنه ليشفع من قد احرق بالنار، فما أحد من الناس يوم القيامة في جميع الأمم أوجه من محمد ﷺ، وهو قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾).

(١) الإسراء/ ٧٩: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾.

(٢) [عالم ما بعد الموت] للفيض الكاشاني/ ص١٠٠: (إن المُعاد في المعاد والمحشور في الآخرة، هو بعينه هذا الشخص الإنساني الذي في الدنيا والبرزخ ـ روحا وبدنا ـ بحيث لو يراه أحد عند المحشر يقول: هذا فلان الذي كان في الدنيا).



لهم يسترون به أبدانهم، وذات مرة سألني أحدهم أن أهب له شيئا من نوري رغم ضعفه، إذ قال:

ـ أعطني من نورك، أو دلّني من أين أتيتَ به؟

تذكرتُ آية القرآن التي تشير إلى هذا الطلب من المنافقين يوم القيامة، والتي تقول: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[1]، حينها أجبته بما أجابهم القرآن، إذ قلتُ له:

ـ ارجع ورائك فالتمس نوراً.

قال:

ـ أتسخر مني، أين النور الذي تقول عنه ورائي؟

ـ أنا أقول ارجع إلى الدنيا والتمس النور من هناك، وهيهات لك ذلك. لقد تركتم نور الله ورائكم، فلماذا لم تستضيئوا به، ولم تلتمسوا منه وقد قضيتم عمراً فيها!

أما المخاصمات بين أهل المحشر فحدث ولا حرج، وكثيراً ما كنتُ أشاهد مخاصمات بين أفراد يبدو من كلامهم أنهم كانوا في الدنيا أصدقاء على السوء، أو شركاء على الباطل، أما الآن فقد أصبح الواحد منهم أشد الأعداء للآخر، ويود لو يقطّعه قِطَعا قِطَعا...

---

(١) الحديد/ ١٣



الفصل الثالث

مظالم ودرجات



ذات مرة رأيتُ مشاجرة تبدو شديدة لكثرة اجتماع أهل المحشر حولها. اقتربتُ منها، ودهشتُ كثيراً عندما رأيتُ أن أفرادها ليسوا بغرباء عني، ويبدو أني أعرفهم! دنوتُ منهم أكثر، وتمعنتُ في صورهم... يا إلهي ماذا أرى! إنه جمال!!

نعم، إن ما أشاهده حقيقة لا خيال، هو جمال بعينه وشخصه. إنه جمال الذي كان سبب مفارقتي للدنيا بعد أن ألقى بي من سطح مبنى ذي خمس طوابق، والآخر الذي كان يتشاجر معه هو صديق له في العمل، ومعروف بسيرته الحسنة لدي ولدى سائر موظفي الشركة التي كنتُ أعمل مهندساً فيها. توقفتُ في موضعي، وما دنوتُ أكثر كي أصغي لهما.

قال جمال وهو في أبشع صورة، عاري البدن، أسود الوجه، نتن الرائحة، يقطر الدم من جروحه التي ملأت جميع أنحاء جسده، وهو يتلوى ألماً منها، قال لصاحبه:

ـ أنت الذي غررتني ودفعتَ بي إلى سرقة أموال الشركة دفعة بعد أخرى، حتى انكشف أمري، وقَتلنا سعيد بسببها.

صرخ صاحبه في وجهه، وهو يقول:

ـ لا تقل قتلنا سعيدا، بل أنت قتلته، وأنت الذي كنت تأخذ جميع أموال سرقاتك، ولا تعطيني إلا القليل منها، و...



قلتُ سبحان الله! هنا تنكشف الأسرار، وتظهر الحقائق المكنونة في الصدور، فجمال كنتُ أعرف سرقاته وقتله لي، أما الآخر فكنتُ أحسبه من المخلصين في عمله وتعامله، وقد ظهر الآن أنه شريك جمال في سرقاته!

تركتهما يتشاجران وانصرفتُ عنهما موكلاً الأمر إلى الله، وقلتُ: ربي أريد العدل والقصاص منهما، فأنت الشاهد وأنت الحاكم.

كانت نار جهنم تزفر بلهيبها بين فترة وأخرى على أهل المحشر، فيبلغ حرّها الأجواف، وتسيل لها الأعراق، وتذوب لشدة حرارتها الجلود، وكلٌ يتألم حسب درجته ومقامه.

لقد كان عسيراً جدا المكوث لحظة واحدة في تلك العرصة، ونحن في أول موقف من مواقف القيامة الكبرى، فكيف بي ومدته تطول ألف سنة، أم كيف بي في المواقف الأخرى التي تليه حتى الخمسين[1].

جفّت دموعي من شدة البكاء على نفسي، فأصبحتُ أبكي دماً، وما رأيتُ قبل هذا الموقف أحداً يبكي دما، ولكني بكيت...! أسفا على لحظات الدنيا التي انقضت ولم أستثمرها كما ينبغي، ولم أتزوّد منها بالزاد الوافي لهذه المواقف والأيام.

كل من في المحشر مشغول بنفسه، فلا أحد من الجن أو الإنس، ولا من الملائكة ينظر إلي فيسألني عما بي، أو يترحم علي، سوى عملي...

قلتُ لعملي الصالح:

---

(١) [وسائل الشيعة] للحر العاملي/ ج١٦/ ص٩٥: (قال أبو عبد الله ﷺ:... فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها فإن للقيامة خمسين موقفاً، كل موقف مقداره ألف سنة، ثم تلا قوله تعالى: ﴿...فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾).



ـ بالله عليك قل لي شيئاً يهوّن علي ما نزل بي، ويطمئن قلبي الملتهب حسرة وندما.

قال:

ـ إنشاء الله ستنال الشفاعة في آخر المطاف، وسأقودك حينها إلى الجنة، فإن لدي الأمل بذلك.

سألته مستغرباً:

ـ ومتى يكون ما تقوله؟

طأطأ رأسه، وقال:

ـ إن ذلك لا يكون إلا في آخر موقف من مواقف القيامة الكبرى[1]، إذ لا سبيل لها الآن.

ـ إنك لم تطفئ ناري المشتعلة في أحشائي، إن قلبي يلتهب الآن، وتقول أني أنال الشفاعة بعد خمسين ألف سنة!

قال وقد أحسستُ عليه الانكسار من عتابي له:

ـ يا عزيزي، إنك تعلم أني خلاصة أعمالك الصالحة، وملكاتك الحسنة، فلا تتوقع مني أكثر مما ادخرته لنفسك في عالم الدنيا، ولو كنتَ أعطيتني من القوة أكثر مما لدي الآن، لتمكنتُ من تخفيف بعض آلامك، وعلى كل حال لا تقنط من رحمة الله، ولا تيأس من فضله..

لم يكمل كلامه حتى سمعنا نداءاً اهتز له من في المحشر، وسمعه أولهم كما سمعه آخرهم:

---

(١) [تفسير الميزان] للسيد الطباطبائي/ ج١/ ص٧٩: (فتحصّل أن المتحصل من أمر الشفاعة وقوعها في آخر موقف من مواقف يوم القيامة...).



ـ (يا معشر الخلائق أنصتوا واستمعوا منادي الجبار).

انكسرت الأصوات عند ذلك، وخشعت الأبصار، وفزعت القلوب، ورفع الجميع رؤوسهم منصتين ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾[1]، فكان النداء:

ـ يا معشر الخلائق إن الله تعالى يقول: (أنا الله لا إله إلا أنا الحكم العدل الذي لا يجور، اليوم أحكم بينكم بعدلي وقسطي، لا يُظلم اليوم عندي أحد. اليوم آخذ للضعيف من القوي بحقه، ولصاحب المظلمة بالمظلمة بالقصاص من الحسنات والسيئات، وأثيب على الهبات، ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم، ولأحد عنده مظلمة إلا مظلمة يهبها لصاحبها، وأثيبه عليها، وآخذ له بها عند الحساب)[2].

توجه عملي الصالح نحوي، وقال:

ـ إن الله تعالى جعل هذا الموقف موقف تصفية الحقوق بين أهل المحشر، إذ هنا يأخذ المظلوم حقه من ظالمه، والمسروق من سارقه، والمغتاب ممن اغتابه و..

---

(١) القمر/ ٨

(٢) بحار الأنوار/ ج٧/ ص٢٦٨: (عن سيد العابدين عليه السلام قال: حدثني أبي أنه سمع أباه علي بن أبي طالب عليه السلام يحدث الناس، قال: إذا كان يوم القيامة... فيأمر ملكا من الملائكة فينادي فيهم: يا معشر الخلائق أنصتوا واستمعوا منادي الجبار. قال: فيسمع آخرهم كما يسمع أولهم، قال: فتنكسر أصواتهم عند ذلك، وتخشع أبصارهم، وتضطرب فرائصهم، وتفزع قلوبهم، ويرفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت مهطعين إلى الداعي، قال: فعند ذلك يقول الكافر: هذا يوم عسر، قال: فيشرف الله عز وجل ذكره الحكم العدل عليهم فيقول: أنا الله لا إله إلا أنا الحكم العدل الذي لا يجور، اليوم أحكم بينكم بعدلي وقسطي، لا يظلم اليوم عندي أحد، اليوم آخذ للضعيف من القوي بحقه، ولصاحب المظلمة بالمظلمة بالقصاص من الحسنات والسيئات، وأثيب على الهبات، ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم ولأحد عنده مظلمة إلا مظلمة يهبها لصاحبها وأثيبه عليها، وآخذ له بها عند الحساب...).



قاطعتُ كلامه بقولي له:

- وهل أخذُ حقي منهم يخفف عني ما أعانيه، وما أتألم منه؟

- بالتأكيد، وجميع ذلك ينفعك في موقف الميزان والحساب.

إنطلقنا بعد أن اصطحبنا عدداً من الملائكة الذين كانت وظيفتهم ما نروم إليه، ويسمونهم ملائكة أخذ المظالم، وقد كان معهم كتاباً سُجل فيه كل مظلمة وتبعة كانت لي ولم أستوفي حقي منها في عالم الدنيا.

كان أول إنسان توجهوا إليه هو جمال!... نعم انه جمال، ولكن بأي حال سيئ كان. قلت في نفسي حينما رأيته عاري البدن، مسود الوجه والجسم، وقد اختلط سواده بالدماء السائلة من جروحه، يحاول ستر نفسه، ولكن بأي شيء يستره! قلتُ: سبحان الله! أهذا جمال الذي كان يتكبر ويتملّق لمسؤولي الشركة، أهذا جمال الذي كان يرتدي الملابس الفاخرة، ويركب السيارة الحديثة، ويسكن المنزل المجهّز بأحدث الوسائل والإمكانات! أهذا المهندس الذي كان يصرخ باطلاً على العمّال، ولا يحترم أحدا دونه، بل كان ينقص من حقهم، ولا يبالي بأجورهم.

التفتُ نحو عملي، وقلتُ له مشيراً بيدي إلى جمال:

- أترجو من هذا شيء وهو بتلك الحالة؟! هل لديه حسنة واحدة حتى أرجو أن تُعطى لي، لا أظن ذلك.

- لا تعجل الأمور يا عزيزي، وترقب ما سيحدث.

اقترب المأمور منه، وقال مخاطباً إياه بلهجة غاضبة:

- إن لسعيد هذا مظلومية عندك، فماذا لديك كي يستوفيها منك؟

صاعقة كبرى نزلت على جمال حينما رآني لأول مرة في ساحة



المحشر، وصُدِم صدمة عظيمة جعلته ساكناً جامداً، لا ترى في أعضائه حركة، ولا دبيب إلا دبيب العرَق الجاري، والدماء السائلة على بدنه المحترق.

العجيب أني شاهدت عليه نفس ملكاته التي كانت حاكمة عليه في عالم الدنيا، من الغضب، والكذب، ونكران الحق، فاشتعل وجهه غضبا، وازداد سواداً وتفحّماً، وصرخ بوجه الملك قائلاً:

- إنني لم أعرف سعيد، وليس لديه أية مظلومية عندي.

غضبتُ لكلامه، وصرختُ بوجهه:

- إنك قتلتني، عدمتني الحياة في الدنيا، حرمتني من فرصة لا تقدّر بأثمان، ولولا فعلتك هذه لشغلتُ ما بقي من عمري في طاعة الله، ولرفعتُ درجتي بأعمالي، ولادخرتُ ليومي هذا ما وسعني.

قال الملك المأمور:

- إن حالك وصورتك يا جمال تدل وتشهد على ذنبك بحقه.

صرخ جمال مرة أخرى، وقال:

- إنه يكذب، إنه يكذب...

وبين ذلك الصراخ والعويل، وإذا بصوت يخرج من نفس بدن جمال، صمت الجميع وإذا بيديه تنطقان وتقولان[١]:

- ونحن نشهد عليه، إنه قتل سعيداً ظلماً، إذ استعملَنا لإلقائه من أعلى الطابق الخامس إلى الأرض، فبِنا عدمه الحياة في الدنيا، وكنّا شاهدين على ذلك.

---

(١) النور/ ٢٤: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.



دُهش الجميع من شهادة اليدين، لاسيما جمال الذي بقي مبهوراً مدهوشا، لا يعلم ما يقول، وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة، نطق جلده ليشهد هو الآخر بقوله:

ـ وأنا اشهد عليه، إنه قتل سعيدا ظلما بغير حق.

ـ دهشتُ من ذلك، وساد الصمت على الجميع مرة أخرى. أما جمال فعاد يصرخ، ولكن هذه المرة على يديه وجلده:

ـ لِمَ شهدتما بهذه الشهادة، ألا تخافان أن يصيبكما العذاب والنار؟

نطق جلده مرة أخرى، وقال:

ـ لقد كنتَ غافلاً يا جمال عن اليوم الذي يتحقق فيه قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١). لقد عُدتَ يا جمال إلى الله الذي خلقك أول مرة، ولكن إلى اسمه المنتقم الجبار، بينما عاد غيرك إلى الله باسمه الرحيم الغفّار، وإنما العذاب يصيبك أنتَ لا غيرك، وأنا لستُ سوى ناقل له إليك، وسوف يتحقق وعيد الله لك، ويكون حالك معي كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾(٢).

ما أن أكمل الجلد كلامه حتى سمعنا نداءاً من الأرض، ويبدو أنها كانت منتظرة فرصتها في الشهادة، إذ قالت:

---

(١) فصلت/ ٢١

(٢) النساء/ ٥٦



ـ أنا الأرض، أشهد أن جمال ألقى بسعيد من مكان مرتفع، وفارق حياته الدنيا على سطحي الممتلئ بقطع من الحديد المبعثر.

لم يبقَ لجمال كلمة واحدة يتفوه بها ليدافع عن نفسه، أو يكذّب بها شهوده، لذا استسلم ونكس رأسه منتظراً ما سيُفعل به.

قال الملك المأمور لمرافقيه من الملائكة:

ـ لا أجد في كتابه حسنات يمكن إعطائها لغريمه، لذا علينا نقل سيئاتٍ من سعيد إليه بمقدار جرم القتل الذي ارتكبه بحقه[1]!

ما أن أنهى الملك كلامه حتى أحسستُ بخفة الثقل على ظهري، وزيادة في نوري، وانخفاض الحرارة التي كانت تحرق أحشائي، وفي الوقت نفسه رأيتُ جمالاً قد ازداد صراخه، وشدة آلامه، وسواد وجهه الذي خالطه دمه الجاري عليه، فازددتُ وحشة منه، ونفرة من رائحته النتنة. توجه الملك نحوي، وقال:

ـ ألديك حق آخر تأخذه منه؟

التفتُ لعملي الصالح أسأله، وقبل أن ينطق بكلمة واحدة سمعنا نداءاً من الأرض يقول:

ـ نعم، أنا أشهد أنه كان المدبر لقتل زوجة سعيد بحادث سيارة متعمَّداً!

(١) شرح أصول الكافي/ ج١٢/ ص٣٤: سأل رجل من قريش الإمام السجاد عليه السلام فقال له: (يا بن رسول الله إذا كان للرجل المؤمن عند الرجل الكافر مظلمة، أي شيء يأخذ من الكافر وهو من أهل النار؟ قال: فقال له علي بن الحسين عليه السلام: يُطرح عن المسلم من سيئاته بقدر ما له على الكافر فيعذب الكافر بها...).



قلتُ سبحان الله! وهذا سر آخر ما كنتُ أعلمه. نظرتُ لعملي الصالح متسائلاً عما يجب فعله، فأشار إلى الملك الذي بادرني بقوله:

ـ كل حق لك، صغير أو كبير، مدوَّن في هذا الكتاب الذي لا يضلّ ولا ينسى، سواءً كان حرمانك من تكميل حياتك مع زوجتك في الدنيا، أو غيبته لك، أو تسقيطه لسمعتك بأكاذيب وافتراءات عليك، أو سرقاته لأموالك، وما من ذرة مظلمة لك عنده إلا وانتزعنا لك حقها منه.

تحسّن حالي بعد تصفية الحساب مع جمال، بينما هو فأصبح أسوأ حالا مما سبق. كنتُ أشاهد دخّان ناره المحترقة فيه يخرج من جميع أنحاء بدنه، أما نار باطنه فهي سوداء تتأجج في أعماق قلبه، وتخرج من فمه ومناخره، وهو يقوم ويقعد، ويعوي كعويل الكلاب والذئاب.

كنتُ مندهشاً مما أشاهده، مستحضراً في فكري كبرياء جمال وتملّقاته، وافتراءاته عليّ في دار الدنيا. استحضرتُ نصائحي له بترك أعماله السيئة وسرقاته من الشركة، ولكنه ما كان يصغي لجملة واحدة منها.

لم أخرج من عالم الفكر الذي جرني إلى ذكريات ما مضى من الدنيا إلا بنداء عملي الصالح الذي قال:

ـ سعيد أرأيتَ ما حصل لجمال؟

ـ نعم قد رأيتُ.

ـ لعلك أول من استوفى حقه منه فأصبح حاله هكذا، فكيف إذا جاء كل من لديه مظلمة عنده وانتزعها منه، تُرى بأي حال سيكون؟!

انطلقنا نبحث عن مظالم أخرى نأخذها، وخلال مسيرتنا لفت نظري شخص مسوداً وجهه، مزرقة عيناه، مائلاً شدقه، سائلاً لعابه، دالعاً



لسانه من قفاه، بيده قدح وهو أنتن من كل جيفة على وجه الأرض، يلعنه كل من يمر به من الخلائق، فقلت لعملي الصالح:

ـ ماذا كان يفعل هذا في دنياه؟

تمعن فيه قليلاً، ثم قال:

ـ لا يشرب عبد خمراً في دنياه إلا وحشره الله بهذه الهيئة التي تراها، وقد أقسم ربي جل جلاله انه لا يشرب عبد خمراً إلا وسقاه يوم القيامة مثل ما شرب منه من الحميم(1).

وصل بنا الملك المأمور إلى رجل كان بدنه عارياً متعفناً، تخرج منه رائحة جيفة الأموات، وهو يقطّع لحم بدنه المتعفن ويأكل منه. كان يتلوى ألماً حينما يمضغ لحمه بأسنانه الصفراء!

أمر عجيب! لماذا يأكل هذا الشخص بهذه الصورة؟ تحيرتُ أكثر عندما اخبرني الملك أن لي مظلمة عنده، فتمعنتُ فيه أكثر ولكني ما عرفته.

سألتُ الملك عن أي حق لي عند هذا الشخص، فقال:

ـ انه كان يجلس مجالس الغيبة والبهتان عليك، ويشارك فيها ولا يدافع عنك، ولا يقوم من مجلسه عندما تُذكر فيه بسوء، أو تُفترى عليك الأقاويل. انه أحد رفاق جمال الذين لم تتعرف عليهم في دنياك.

---

(1) بحار الأنوار/ ج ٧/ ص ٢١٨: (عن الصادق ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: اقسم ربي جل جلاله لا يشرب عبد لي خمرا في الدنيا إلا سقيته يوم القيامة مثل ما شرب من الحميم معذباً بعد أو مغفوراً له، ثم قال: إن شارب الخمر يجيء يوم القيامة مسوداً وجهه، مزرقة عيناه، مائلاً شدقه، سائلاً لعابه، دالعاً لسانه من قفاه).



سأله الملك عن سبب مشاركته في مجالس الغيبة والبهتان، فأنكر ذلك، وقال:

ـ متى كان ذلك؟ إنني لم أنطق أو أسمع أي غيبة عن هذا الشخص، لم أسمع أي شي عنه...

أراد أن يبكي بدموع التماسيح، ولكن فضحه سمعه بشهادته عليه إذ نطق، وقال:

ـ نعم، انه كان يستعملني كثيراً لسماع الغيبة، بل لسماع افتراءات كاذبة على سعيد، وكان لا يردُّ على أهل تلك المجالس، بل يتلذذ بسماعها، ويضحك معهم، وأنا شاهد على ذلك. أنه كان غافلا عن الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1].

نكس الرجل رأسه للأرض وبكى بكاءً شديداً، وتمسك بأطراف ثيابي متوسلاً أن أهبه حقي الذي عنده، فأبيتُ ذلك.

لم يتركني على حالي، بل راح يتوسل أكثر، ويقبّل يدي مرة وقدمي أخرى، وفي كل ذلك كنتُ أعرض عنه ولا أقبل منه. التفتُ إلى عملي الصالح، فقلتُ له:

ـ إنني كلما راجعتُ نفسي، ما وجدتُ في قلبي ذرة تحنن ورأفة عليه أو رقّة على حاله، أيكون ذلك بسبب انحطاط درجته وتدنّي مقامه؟

ـ صحيح ما تقول، وصورته وحاله يدلك على ذلك، ولو كان من

---

(١) فصلت/ ٢٠



المتقين لألقى الله في قلبك حبّا له، ولوهبته مظلمتك التي عنده، وألقيتَ عنه بعض من آلامه، والله يعطيك مثلها من الأجر.

أخذتُ حقي منه، وانطلقنا نبحث عن مظالم أخرى، ولكن خلال مسيرتنا أقبل علينا شخص مسودّ الوجه، يصرخ بصوت عال: أين فلان أين فلان.

أصغيتُ جيداً لما يقول. عجيب أمره! أنه ينادي باسمي ويطلبني! تُرى ماذا يريد مني؟ استوحشتُ منه أكثر عندما رأيتُ معه ملك مأمور وجمع من ملائكة أخذ المظالم.

اقترب مني وأراد أن يمسكني من عنقي، فمنعه الملائكة الذين برفقته، وكلما حاول ذلك مُنع منه.

تمعنتُ في صورته وملامحه أكثر وأكثر حتى تذكرته. لقد كان صاحب محل صغير بالقرب من محل سكني أيام دراستي في الجامعة، ولكن تُرى ماذا يريد مني الآن؟!

بادرني الملك المأمور معه بقوله:

ـ إن لهذا مبلغٌ لديك لم تؤده إليه في الدنيا، وهو الآن يريد أخذ ما يعادله منك.

سألته مستغربا عن زمن ذلك وكيفيته، فأجاب:

ـ لقد كنتَ تتسوق منه يومياً ما يلزمك للعشاء لك ولرفاقك، وذات مرة اشتريتَ منه بيضة واحدة، فأعطيته مبلغاً بعملة ذات فئة كبيرة، فاستحى أن يصرّفها لك لأن المبلغ كان زهيداً، لذا قال لك أن لا تثريب في ذلك، يمكنك إضافتها على الحساب القادم، ولكنك استحقرتها ولم تؤدها إليه، فبقي مبلغها في عنقك حتى انتقلتَ من الدنيا للبرزخ بالموت،



وانقطع بك السبيل، وما كان أحد في الدنيا يعلم بهذا الأمر كي يؤدّيه عنك.

خاطبتُ الرجل ملتمساً إياه:

ـ ألا تهبها لي؟ إني بأمس الحاجة إلى حسنة واحدة، وأنت تريد أن تأخذ مني حسنات.

لم يعبأ الرجل بكلامي، وقال:

ـ ألا ترى بدني يتوهج من شدة حرارته؟ إنني أريد أن أضع اصبعي في بدنك فلعله يبرد قليلاً.. ولو للحظة واحدة.

نظرتُ إلى إصبعه فرأيته متوقداً محمراً كالجمرة الحمراء! لم يترك لي فرصة النطق بكلمة واحدة، إذ مد يده نحوي وغرز إصبعه في عنقي، ولشدة حرارته أحدث ثقب فيه، وصهر ما حوله. صرختُ صرخة عظيمة من شدة الألم سمعها من في المحشر، وبقيتُ أتلوى ألماً وحرقة، وبكيتُ بكاءً عظيماً، فلا أدري على أي شيء أبكي، أبكي لعظيم ألمي، أم لحرقة بدني، أم لندامتي على غفلتي، واستحقاري لهذه وغيرها من تبعات عالم الدنيا...

مضت مدة طويلة وأنا أتألم مما أحدثه هذا الرجل في بدني، بل أضيفت فوقه تبعات أخرى ومظالم عدة ما كانت في الحسبان، بل ما كنتُ أتوقع يوماً أن يأتي أصحابها وينتزعوا ما يعادلها مني، وذلك لتفاهة قيمتها كما كنتُ أتصور في دار الدنيا.

ذات مرة أتاني شخص ما كنتُ أعرفه، وقال إن مظلمته عندي أنه ذات يوم كان واقفاً في صف شراء الخبز، فأتيتُ أنا لشراء الخبز أيضاً، وكان بعض من الواقفين عمّال في الشركة التي كنت أعمل فيها مهندسا، فقدّموني أمامهم، فتقدمتُ، وما حسبتُ أني أخذتُ حق من كان يقف



خلفهم، وقد كان هذا الرجل أحدهم، فامتعض من فعلي هذا، وجاء اليوم ليأخذ حقه مني! وقد أخذه وذهب لحاله.

وأيضاً في يوم من أيام الدنيا تعاقدتُ مع أحد الأشخاص لإنجاز عمل في أحد مشاريع الشركة بأجرة يومية قدرها عشرون ألف دينار، ولكن بعد أدائه لِما كلّف به واطّلاع مدير الشركة على قائمة أجور العمال، خفّض أجرة عمله إلى ثمانية عشر ألف دينار، ولم أتجرأ حينها على منعه من ذلك، وقد جاء هذا العامل الآن ليأخذ حق الألفين مني!

وذات مرة جاءني شخص يطالبني بحقه في الجلوس في الصف الأول من صلاة الجماعة، إذ أتيتُ في يوم من أيام الدنيا لأداء الصلاة، ورأيتُ الجمع مجتمع، والصفوف قائمة، فقدّمني أحد الأصدقاء للصف الأول، وطلب من الشخص المذكور القيام لأجلس أنا محله، فأظهر الأخير عدم موافقته ولكنه قام من مقامه مُكرها، وجلس في أحد الصفوف الخلفية مُجبرا، أما أنا فقبلتُ ذلك لغفلتي أني قد أخذتُ حق أسبقيته في المكان!

أصبتُ بنكسة كبيرة وانكسار عظيم عندما راجعتُ نفسي، وتفحّصتُ حالي، فوجدتُ أن نوري قد ضعف، وثقل سيئاتي قد كبر، وكفة حسناتي قد خفّت، وبياض وجهي قد خالطه السواد...

أصبحتُ أرتجف كلما أرى شخصاً يُقبِل نحوي أو يناديني، خوفاً من أن ينتزع شيئاً مما لدي. التفتُ إلى عملي الصالح، وقلتُ له:

ـ انطلقنا بحثاً عن مظالم تنفعنا، ولكني أرى حصول خلاف ما تأملناه!

ـ عزيزي سعيد، المشكلة أنك تبتَ إلى الله توبة صادقة في الدنيا، ولكنك غفلتَ عن أداء حقوق الناس التي بقيت في عنقك، والتوبة لا



تكون كاملة إلا بإرجاع كل حق إلى صاحبه وإن صغر، وأنت تعلم أن كل إنسان في المحشر بأمسّ الحاجة إلى زيادة رصيده من الحسنات، ولو كان بمقدار ذرة أو اقل منها.

ـ وماذا أفعل الآن، وما هو حلّك لهذه المشكلة؟

ـ كان الحلّ بيدك في الدنيا، وهو أن تذهب إلى كل واحد من هؤلاء وتطلب منه براءة ذمتك، أو توفيه حقه. وعلى كل حال لا تحزن، فإنك لا زلتَ ضمن حدود درجة المؤمنين، ولم تبتعد عنها كثيراً.

طأطأتُ رأسي إلى الأرض، وقلتُ له:

ـ إني أخاف فقدان حتى هذه الدرجة، إني قلق جداً لما سيؤول إليه مصيري، وكيف يمكنني تجاوز خمسين موقفاً من مواقف القيامة وتحمّلها، وأنا لا أطيق ساعة منها، وهل سأنجو بعدها، أم سأقع في هاوية النار؟ لا ادري...

وجرت دموعي مرة أخرى أسفاً وحزناً على تقصيري وغفلتي في عالم الدنيا، إذ كنتُ غافلا عن أن حق الناس لا يسقط بالتوبة فقط، وصحيح أني عزمتُ على ترك المعاصي ورعاية حقوق الخلق، والتزمتُ بكلامي بيني وبين الله بعد إعلان توبتي، لكني نسيتُ تبعات الماضي، ولم أسعَ لتصفيتها مع خلقه.

بقيتُ على هذه الحالة مدة طويلة، أرى كل مخلوق مشغول بنفسه عن غيره، بل يفر حتى من أهله وأخوته، ويهرب من أمه وأبيه، وزوجته وبنيه[1]، فلكل واحد منهم شأن يغنيه، أما أنا فكنتُ أعيش بين الخوف

---

(١) عبس/ ٣٤ ـ ٣٧: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.



من قلة رصيد الحسنات، وبين الأمل بالنجاة... بل حتى ذلك الأمل صار ضعيفا يوم فوجئتُ بلقاء زوجتي في المحشر!

نعم، كانت تقصدني وتبحث عني، ولم يكن حالها أفضل من حالي. تمعنتُ فيها جيدا وتيقنتُ من شخصها... أجل، هي آمنة أم مرتضى بعينها، والتي فارقت الدنيا أثر حادث سيارة يوم كان مرتضى صغيرا لم يتجاوز الرابعة من عمره.

سلمتُ عليها، وسألتها عن حالها، فأجابتني:

ـ ليت الموت أعدمني الحياة يا سعيد، وليتني لم أُخلق في الدنيا لأعيش حسرتها الآن، وليت الـ..

لم تتمكن من إكمال جملتها التي نطقت بها، وجرت دموعها بغزارة، وارتفع صوت بكائها، فعلمتُ من ذلك شدة الألم والحسرة التي أصابتها، وما أن هدأتْ حتى سألتها:

ـ ولكن ما الذي تطلبيه مني؟ ولماذا تبحثين عني في صحراء المحشر؟

كانت مترددة في الجواب، وقد طغى على وجهها الخجل والحياء، ولكنها تغلبتْ عليه، وقالتْ:

ـ كنتُ أبحث عنك كي آخذ حقي منك.

ـ وما هو حقكِ عندي؟

ـ إن الله جعل للزوجة حقوقا على زوجها، وأنتَ لم تراعي الكثير منها، فهل كنتَ غافلا عنها؟ أم أنك انجرفت مع العُرف السائد في مجتمعنا يوم ذاك، والذي يفرض على المرأة واجبات لم يفرضها الله عليها.



لـم تعطني فرصة السؤال عن أي حقوق تتحدث، إذ استرسلتْ في كلامها، وقالتْ:

ـ أتذكر يا سعيد يوماً دعوتَ فيه أصدقائك للعشاء في بيتنا، وطلبتَ مني تهيئة الطعام لهم، فتعذرتُ من ذلك لأني كنتُ متعبة جدا.

ـ نعم أذكر ذلك، وقد جلبتُ لهم الطعام من السوق، وما أجبرتكِ عليه.

ـ ولكنكَ جرحتني كثيرا بكلامك لي بعده، وأعرضتَ عني، ولم تكلمني ليومين لأني لم أهيء الطعام لهم، مع إن الإسلام يعتبر خدمات المرأة في منزل زوجها تطوعا وإيثارا منها، لا وجوبا عليها[1]. سعيد: إنني لم أسمع منك كلمة شكر ولو بلفظ اللسان على ما اعمله في المنزل من الصباح إلى الليل، كما إني لم أطالبك قط بأجرة على عملي هذا. أهكذا كان ينبغي أن يكون جزائك لي مقابل كل أتعابي وخدماتي لك؟ لا بل الأكثر من ذلك أنك كنتَ تتعامل معي وكأني خادمة في بيتك، فتأمرني بجلب طعامك أو أوراقك أو حاجياتك التي كان بإمكانك أن تقوم وتجلبها بنفسك، والأعظم من ذلك انك كنتَ تغضب علي إذا تأخرتُ في جلبها، فهل هذا كان يتوافق مع الإسلام الذي كنتَ تعتنقه وتدافع عنه؟

نكستُ رأسي ولم أتمكن من الدفاع على نفسي، فبأي جواب أردها؟ وبأي كلمة أجيبها؟ وكل كلامها كان صحيحا، لذا التزمتُ الصمت، وأعطيتها بسكوتي هذا فرصة لاستئناف حديثها، إذ قالت:

---

(١) [أخلاق أهل البيت ﷺ] للسيد محمد مهدي الصدر/ ص ٣٧٩: (والنفقة حق معلوم للزوجة، تتقاضاه من زوجها، وان كانت ثرية موسرة، لا يسقط الا بنشوزها وتمردها على الزوج. وليس له قسرها على الخدمات المنزلية، أو إرضاع طفله، الا ان تتطوع بذلك عن رغبة وإيثار).



ـ كنتُ أفتقد منك العون لي ببعض أعمالي في المنزل، إذ كان تكبرك يمنعك من ذلك، واستحياؤك من الناس يحول بينك وبينه، ولا أعلم أي عيب فيه؟ ألم يساعد إمامنا زوجته فاطمة في منزلها بأعمال الطبخ وتربية الأطفال وغيرها؟ ألم يطرق سمعك قول نبينا لأمير المؤمنين بعد ما رآه في البيت ينقي العدس، وفاطمة جالسة عند القدر إذ قال له: (ما من رجل يعين امرأته في بيتها إلا كان له بكل شعرة على بدنه عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله من الثواب مثل ما أعطاه الصابرين)(1).

يا سعيد، أين كنتَ من كل هذا الثواب وأنت الآن في أشد الحاجة إليه، وأراك تبحث عن الحسنة من هنا وهناك، ومن فلان وفلان.

إحترق قلبي ألما وحسرة لما ضيعته من الثواب العظيم في الدنيا، ولِما قصّرتُ به من حُسن العشرة مع الأهل والعيال، ولم تكتفِ آمنة بهذا الحد من عتابها لي، إذ استأنفتْ كلامها مرة أخرى لتوقد شعلة الندم والحسرة أكثر في قلبي، فقالتْ:

ـ يا سعيد، إن كل واحد منا الآن يتمنى لو أفدى بدنياه وما فيها مقابل أن تزيد حسناته ولو واحدة، أو تطفئ نيران سيئاته ولو للحظات، وأنت

---

(1) [جامع أحاديث الشيعة] للسيد البروجردي/ ج١٧/ ص١٣٩: (عن علي عليه السلام قال دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وفاطمة عليها السلام جالسة عند القدر وأنا أنقي العدس قال: يا أبا الحسن، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: اسمع وما أقول إلا ما أمر ربي، ما من رجل يعين امرأته في بيتها إلا كان له بكل شعرة على بدنه عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله من الثواب مثل ما أعطاه الصابرين وداود النبي ويعقوب وعيسى عليهم السلام. يا علي، من كان في خدمة العيال في البيت ولم يأنف، كتب الله اسمه في ديوان الشهداء، وكتب له بكل يوم وليلة ثواب ألف شهيد، وكتب له بكل قدم ثواب حجة وعمرة، وأعطاه الله بكل عرق في جسده مدينة في الجنة. يا علي: ساعة في خدمة البيت خير من عبادة ألف سنة، وألف حجة، وألف عمرة، وخير من عتق ألف رقبة...).



ضيعتَ الكثير الكثير. أين كنتَ من وصية خاتم الأنبياء لعلي إذ قال له: (يا علي، خدمة العيال كفارة للكبائر، وتطفئ غضب الرب، ومهور حور العين، وتزيد في الحسنات والدرجات)(1).

اعترفتُ لها بتقصيري معها، إذ لا مجال هنا لنكران الحقيقة، أو التهرب منها، ولكني سألتها عما إذا كانت نادمة على خدمتها في بيتها طوال حياتها معي، فأجابتْ:

- اعلم يا سعيد أنني غير نادمة قط على ذلك، ولولا هذه الخدمات في البيت لما كان نوري بالدرجة التي تراها الآن، بل إني متأسفة على عدم المزيد منها، ونادمة على أني لم أتلقى بجدٍ تلك الأحاديث التي كانت توعد بالثواب العظيم للمرأة التي تخدم زوجها، وأن هذه الخدمة تغلق عنها أبواب النيران، وتفتح لها أبواب الجنان(2)، أو تلك التي توعد بالغفران للمرأة التي تسقي زوجها شربة ماء، وأن هذا العمل خيرٌ لها من صيام نهارها وقيام ليلها(3).

توقفتْ عن الكلام، وجرّت حسرة طويلة، ثم قالتْ:

---

(1) [مستدرك الوسائل] للميرزا النوري/ ج١٣/ ص٤٩: (عن علي عليه السلام قال: دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله... يا علي، من لم يأنف من خدمة العيال دخل الجنة بغير حساب. يا علي، خدمة العيال كفارة للكبائر، وتطفئ غضب الرب، ومهور حور العين، وتزيد في الحسنات والدرجات. يا علي، لا يخدم العيال إلا صديق أو شهيد، أو رجل يريد الله به خير الدنيا والآخرة).

(2) [ميزان الحكمة] للشيخ محمد الريشهري/ ج ٢/ ص ١١٨٦: (عن الإمام الباقر عليه السلام: أيما امرأة خدمت زوجها سبعة أيام أغلق الله عنها سبعة أبواب النار، وفتح لها ثمانية أبواب الجنة تدخل من أيها شاءت).

(3) [وسائل الشيعة - آل البيت] للحر العاملي/ ج ٢٠/ ص١٧٢: (وقال عليه السلام: ما من امرأة تسقى زوجها شربة من ماء إلا كان خيرا لها من عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها ويبنى الله لها بكل شربة تسقى زوجها مدينة في الجنة وغفر لها ستين خطيئة).



ـ لا فائدة من التأسف والندم الآن، فقد انتهى التكليف، وهيهات من العودة للدنيا مرة أخرى.

تأثرتُ كثيرا من كلامها، وأحسستُ بالخجل العظيم أمام الملائكة الذين كانوا برفقتها، لذا حاولتُ إبراز جانب الإيجاب مني معها، إذ قلتُ لها:

ـ إنني الآن لم أنكر خدماتكِ لي في المنزل، ولكِ الحق في كل ما قلتيه، وكان الأجدر بي أن أجمع بين نفقاتي عليكم، وسعي من أجل تحصيل معاشكم، وبين حُسن العشرة والخُلق معكم، وكان الأجدر بي أن أشكركِ بدلا من إظهار عدم الرضا عليكِ.

كان الجميع ينصت لكلامي ويترقب نتيجة الحوار بيننا، ولم أجد من يقاطعني، فاستأنفتُ الحديث بقولي:

ـ لقد رفع الله درجتي ونوري بين أهل المحشر بسبب إخلاصي له تعالى في كدّي عليكم، ولولا ذلك لما كان نوري بالدرجة التي ترينها[1]. وأسفي أن لم أكن حَسنَ الخلُق معكِ كما أوصى نبينا به، وقد عُذّبتُ عظيم العذاب في البرزخ لأجله، وخوفي الآن أعظم من آثاره في عالم القيامة الكبرى.

نويتُ الطلب منها أن تهبني ظلمي لها، ولكني قبل أن أعرض عليها ذلك قلتُ لها:

ـ إن من واجبات الزوجة في العشرة مع زوجها أن تطيعه ولا تعصيه، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ولو إلى أهلها، وأيما امرأة باتت وزوجها

---

(١) [بحار الأنوار] للعلامة المجلسي/ ج ١٠٠/ ص ١٣: (قال رسول الله ﷺ: الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله).



ساخط عليها في حق، لم تُقبل منها صلاة حتى يرضى عنها[1]. فهل عملتِ بما فرضه الله عليكِ، أم كنتِ غافلة عنه؟

لم أعطها فرصة المقاطعة والدفاع عن نفسها، إذ أردفتُ كلامي مباشرة بالسؤال منها:

ـ أتذكرين يوم انتقل محل عملي إلى مدينة أخرى، وقد طلبتُ منكِ السفر معي إلى هناك، ولكنكِ امتنعتِ ولم توافقي رغم إصراري عليه، ورغم أن السفر لم يكن حرجا عليكِ، أليس هذا خلاف لتوصيات الإسلام لكِ بحق زوجكِ؟

وذكرتُ لها موارد عديدة أخرى كانت مقصرة فيها، فلم أسمع جوابا منها، بل التزمتْ الصمت الذي كان يدل على اعترافها بها، حينها رأيتُ أن الوقت مناسب لعرض طلبي منها، فقلتُ لها:

ـ أطلب منكِ يا آمنة أن تهبي لي ظلمي لك، وأنا أهب لكِ تقصيركِ معي[2]، عسى الله أن يعف عنا، ويتجاوز علينا، وهو أرحم الراحمين.

لم تمانع طلبي منها، بل استقبلته بلهفة وترحيب طمعا برحمة العزيز

---

(١) [جواهر الكلام] للشيخ الجواهري/ ج ٣١/ ص ١٤٧: (ومن حقه عليها أن تطيعه ولا تعصيه ولا تتصدق من بيته إلا بإذنه ولا تصوم تطوعا إلا بإذنه، ولا تمنعه نفسها، ولو كانت على ظهر قتب، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ولو إلى أهلها ولو لعيادة والدها أو في عزائه وأن تطيب بأطيب طيبها، وتلبس أحسن ثيابها، وتتزين بأحسن زينتها، وتعرض نفسها غدوة وعشية...).

(٢) بحار الأنوار/ ج٧/ ص٢٦٨: (عن سيد العابدين عليه السلام قال: حدثني أبي أنه سمع أباه علي بن أبي طالب عليه السلام يحدث الناس، قال: إذا كان يوم القيامة... ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم ولأحد عنده مظلمة إلا مظلمة يهبها لصاحبها وأثيبه عليها، وآخذ له بها عند الحساب...).



الغفار، ولعل عفوي عنها يخفف عنها شيئا من أهوال المحشر وما بعده. ثم حان الوداع، وآن الفراق، ليشق كل منا طريقه نحو الحساب...

ومضيتُ مرة أخرى في صحراء المحشر، ولشدة حرارة الموقف أحسستُ بجفاف بدني ويبوسته، وضعف في جوارحي. أصبحتُ أقوم واقع، وأمشي وأتعثر، ولم تعد لي طاقة على الحركة والانتقال. ومما زاد الطين بلّة أنه أتاني مخلوق قبيح الشكل، أسود اللون، يتلفت يميناً ويساراً، وكأنه يخاف من شيء ما، فأمسك بيدي، وقال لي بلهجة ساخرة:

ـ أبشرك بالنار يا سعيد، أبشرك بالنار، سوف تدخلها لا محالة في ذلك، وإني أرى مستقبلك أسوء وأخزى بكثير مما أنت فيه الآن!

صعقني بكلامه، وقلتُ له:

ـ وماذا يجب علي فعله حتى أنجو مما تقوله؟

ضحك مستهزئا من قولي، ثم قال:

ـ لا سبيل لنجاتك، وكل ما عليك فعله أن تتحمل أحقاباً في نار جهنم، قد تكون آلاف من السنين، إن لم تكن ملايين!

صرختُ في وجهه، وحاولتُ إبعاده عني فما تمكنتُ من ذلك حتى أتى عملي الصالح، حينها ولى هارباً بعيداً عني، لا أعاده الله لي.

قلتُ لعملي الصالح:

ـ من يكون ذلك الذي أرعبني، وقد ولى هارباً حين حضورك؟

أجابني بقوله:

ـ إنه خلاصة أعمالك السيئة، ولكن لا عليك به، فإنه ضعيف ولا



يتمكن منك إلا في بعض المواضع، إنه يستثمر أوقات الدنيا التي كنتَ بعيدا فيها عن الأعمال الصالحة، فيأتي فيها الآن ليرعبك ويؤذيك. ولكن عليك الحذر منه عند عبورك الصراط، إذ سيكون لك في المرصاد، ويستخدم كل ما لديه من قوة وسلطان كي يزلك عنه، ويوقعك في الهاوية.

ومضت آلاف السنين...

أجل آلاف من سنين المحشر، وفي عرصته التي لا ظل فيها ولا ظليل، ومررتُ فيها بمواقف عسيرة غير يسيرة، وفترات مريرة طويلة جداً لقيتُ فيها ما لقيتُ من مرارة وآلام، وفي بعضها ذلة وانكسار، ولماء وجهي خزي واندثار.

كنتُ أخجل كثيراً، وتحرقني العبرة والحسرة عندما أرى أفراد من أقربائي في الدنيا، وقد نالوا درجات عليا ونور عظيم، وهم الآن في مقامات عالية.

والعجيب أنني كنتُ أحسبهم أناس بسطاء، إذ لم يكن ظاهر للناس قربهم من الله في دار الدنيا، ولا تحس لأعمالهم الصالحة ضجيجاً، ولا لخيراتهم إلى الناس حسيساً.

سألتُ أحدهم وقد كنتُ أنا الذي حثثته على التوبة في الدنيا، وتعاهدنا سويا على أن تكون توبتنا خالصة لله، سألته عن أي شيء أوصله إلى هذا المقام؟ فأجاب:

ـ لا تظن أنني نلتُ هذا المقام دون عمل وجهاد مع النفس و..

قاطعته، وقلتُ له:

ـ هل تذكر أنني أنا الذي فاتحتك بالتوبة إلى الله، وقد تعاهدنا عليها، وبدأنا بها في وقت واحد، فبماذا افترقنا؟



ـ صحيح ما تقول، لكنك لم تجاهد نفسك كما ينبغي، ولم تمنعها من الرياء الذي كان يخالط الكثير من أعمالك. كنتَ تعمل قربة إلى الله، لكنك لم تكن تراجع باطن قلبك، وتتفحص حقيقة نيتك، ولو فعلتَ ذلك وحاسبتَها في وقتها، لوجدتَ أن عملك مشوب، ونيتك غير خالصة، ولرأيتَ هدفاً آخر قد لصق به، واخترق صدق خلوصه.

شكوتُ إليه طول الفترة التي مضت في المحشر، فتعجب من كلامي، وقال:

ـ لقد كانت مدة قصيرة ولم أحس بطولها كما تقول، فعن أي شيء تتحدث؟

إستغربتُ من جوابه، وقلتُ له:

ـ أتحدثُ عن الفترة من أول الحشر حتى ساعتنا هذه.

أطرق قليلاً، ثم قال:

ـ أنتَ صادق فيما تقول يا سعيد. إن طول مواقف القيامة تختلف من شخص لآخر، وكلٌ حسب درجته ومقامه، فبعض يحس به آلاف بل ملايين السنين، وبعضهم لا يحس به كذلك، بل يمر عليه وكأنه نهر يقطعه، أو جسر يعبر فوقه، والخلق بين هذا وذاك في تباين كبير...



الفصل الرابع

عقبات في الطريق



سكنت الأصوات، وساد الصمت بين العباد حينما سمعوا نداءاً كان معناه: يا معشر الخلائق إن العزيز الجبار يقول: (يا بني آدم إن صراطي مستقيما منذ خلقتكم وقد أمرتكم به، وقلتُ لكم أكثروا من الزاد إلى طريق بعيد، وخففوا الحمل فالصراط دقيق[1]، فمن سار عليه في دنياه نجى عندي، ومن أعرض عنه، ووضع فيه العقبات فعليه اليوم أن يتجاوزها).

كان لكل واحد من أهل المحشر أمل بتجاوز عقبات الوصول إلى جنة الخلد، والذي زاد من ذلك أن الجنة بدت للجميع فرأوها، واشتاقوا لها. ولولا خلود عالم القيامة لمات الجميع شوقاً لها!

إنطلق الجميع أملاً باقتحام عقبات الجنة وتجاوزها، وانطلقتُ أنا معهم...

يا له من أمر عجيب! ومنظر غريب! جلب أنظار الخلق أجمعين. دهشتُ انا أيضاً مما شاهدته، وسألتُ عملي الصالح عن أولئك الأشخاص ذوي الأنوار العظيمة الذين اقتحموا العقبات، ثم قطعوا

---

(١) [الجواهر السنية في الأحاديث القدسية] للحر العاملي/ ص٨٠: (... يا بن آدم أكثر من الزاد إلى طريق بعيد، وخفف الحمل فالصراط دقيق، وأخلص العمل فإن الناقد بصير، وأخر نومك إلى القبور، وفخرك إلى الميزان، ولذاتك إلى الجنة، وكن لي أكن لك...).



الصراط كالبرق الخاطف في سرعتهم، ليقفوا على أبواب الجنان، ثم يتعالون ويستقرون فوق أعرافها، فقال:

ـ أول تلك الأنوار هو الرسول الخاتم ﷺ، وتبعه أوصيائه بعده، ثم الأنبياء أولوا العزم وسائر الأنبياء ثم أوصيائهم، وتلك سيدة نساء العالمين يحاذي نورها نور خاتم الأنبياء. وتلك مريم العذراء مع مجموعة من النساء اللواتي كُنَّ من أفضل نساء عالم الدنيا في المرتبة بعد الزهراء البتول. لقد أزالوا كل العقبات في دنياهم، ولم يتركوا واحدة تعيقهم الآن من الوصول إلى الهدف والغاية من خلقهم، إلى رضوان الله وجنة لقائه...

اشتقتُ كثيراً للقاء تلك الأنوار، ولكن أين مقامي من مقامهم، وأنا لازلتُ في أول الطريق. عدتُ ثانية إلى عملي الصالح متسائلاً:

ـ وما هذا المكان المرتفع الذي وقفوا فوقه؟

ـ انه مكان مرتفع من الجنان، يشرف على الجنة والنار، ويقال له الأعراف..

قاطعته مستغرباً:

ـ الأعراف؟! وماذا يفعلون في مكان كهذا؟

ـ انه مقام وهبه الله لهم، وقد أوكل إذن ورود الجنة لهم، فهم الشهداء على أفعال الخلق، ويعرفون ظواهرهم وبواطنهم.

أطرقتُ قليلاً، ثم استأنفتُ الحديث معه بسؤالي منه:

ـ أيكونوا هم من قال الله تعالى عنهم: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾[1]؟

---

(١) من الشائع لدى عامة الناس أن أهل الأعراف هم من تساوت حسناتهم وسيئاتهم،=



ـ نعم، فهم الرجال الذين يعرفون أهل النار بسيماهم، وأهل الجنة بسيماهم، وهذه المعرفة إنما هي بحقائقهم وصورهم الباطنية ودرجات استحقاقهم للجنة أو النار.

ـ وهل لهم حق الشفاعة في هذا الموضع؟

ـ نعم، في هذا الموضع تكون شفاعتهم، ولكن لا ينالها منهم إلا من ارتبط بهم في دنياه، وعرفهم وعرفوه، واتّبع سبيلهم، وخطى بخطاهم.

كنتُ أرى بعد الوجبة الأولى أُناس يقتحمون عقباتهم بسهولة، بالغة ثم يعبرون الصراط[1] فُراداً فُراداً، ويصلون إلى الجنان، ولكن ليسوا بمرتبة رجال الأعراف.

نظرتُ إلى نفسي وقايستها مع أولئك، فرأيتُها تعتصر ألماً، وتحترق حسرة على ما فرّطتْ في دنياها، تتطلع للجنان تارة، ولعقبات طريقها تارة أخرى، أرى المسير وعراً جداً، ولا اعلم متى تكون نهايته وإلى أين؟ أيطول عشرات أم مئات أم آلاف من السنين؟ والأسوأ من ذلك أني لا اعلم أن الوصول في نهاية الطريق سيكون للجنة أم للنار؟

على كل حال، لا بد من البدء بالرحيل...

=ولكن السيد الطباطبائي (قدس الله سره) في المجلد الثامن من تفسير الميزان ضمن تفسيره لهذه الآية رقم ٤٦ من سورة الأعراف، لا يؤيد هذا المفهوم، ويثبت بعد بحث طويل أن الأعراف من المقامات الإنسانية العالية التي تظهر يوم القيامة، وأهل الأعراف هم أصحاب تلك المقامات من الأنبياء والأولياء، يعرفون الناس بحقائقهم، ويشهدون على أعمالهم، ولهم منزلة الشفاعة فيهم.

(١) [الأمالي] للشيخ الصدوق/ ص٢٤٢: (عن الصادق عليه السلام قال: الناس يمرون على الصراط طبقات، والصراط أدق من الشعر وأحدّ من السيف، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل عدو الفرس، ومنهم من يمر حبوا، ومنهم من يمر مشيا، ومنهم من يمر متعلقا، قد تأخذ النار منه شيئا وتترك شيئا).



كانت الصلاة أول عقبات الطريق، وقد مكثتُ في محطاتها عدداً من السنين حتى تم تحميلي بكل ما قصّرتُ بحقها، كما إن صورة صلاتي الحقّة قد تجسمت وحضرت لتزيل عني بعض أشواك طريق اقتحامها، وألقت باللوم علي أن لم أراعي أدائها في أوقاتها، ولم أستحيي من ربي حين الوقوف بين يديه فيها، إذ كان فكري يهرب منه هنا وهناك!

قلتُ لها:

ـ كنتُ كلما حاولتُ أن أحفظ طائر الخيال في الصلاة أن لا يهرب مني لم أجد جدوى في ذلك، وما أشعر إلا وقد ذهب الفكر إلى أمر من أمور الدنيا، ثم يجول من غصن إلى غصن فيها تاركاً بدني يقيم الصلاة وحده، دون حضور للقلب معه.

أجابتني الصلاة وقد أنكرت علي كلامي، وأبطلت حجّتي:

ـ إن القلب إذا تعلّق بشيء وأحبّه، يكون ذلك المحبوب قبلة لتوجه فكره حيثما كان، فإن منعه مانع وشغله شاغل عن التفكير فيه، والعيش معه، عاد مرة أخرى ليطير شطر محبوبه بمجرد ارتفاع المانع وقلة الاشتغال، وأنت يا سعيد..

قاطعتها لأقول لها:

ـ إن محبوبي لم يكن سوى الله.

ـ من أحب الله لم يتركه وهو في حضرته وبين يديه، أليس كذلك؟

ماذا بوسعي أن أقول لها؟ لزمتُ الصمت ولم أجبها بشيء، فقالت:

ـ كان حبك للدنيا أكبر من حبك لله، وقد أنكرتَ على نفسك ذلك. كنتَ إذا حان وقت الصلاة وكبّرتَ تكبيرة الإحرام مستنفراً كل قواك لأن تكون مع الله، سرعان ما يطير قلبك إلى محبوبه وهو الدنيا، ليتعلق بها



مرة أخرى. وصلاة كهذه لم تقربك من مقام الحق تعالى[1]، ولم تزيل عن قلبك الظلمة والكدورة التي كنتَ تشكو منها.

توقفتْ قليلا لتعطيني فرصة التعليق على كلامها، فسألتها:

ـ إذن سبب فرار الفكر وطائر الخيال من الصلاة هو التعلق بالدنيا؟

ـ نعم.

ـ وماذا كان بوسعي أن أعمل كي أتخلص من حالة كهذه؟

ـ كان عليك أن تخلع شجرة حب الدنيا بجذورها من قلبك، بالتفكر والتدبر في حقارتها، وزوالها مقابل عظمة الآخرة وأبديتها، وكان عليك أن تعرف الله، وتستحضر عظمة من تقف بين يديه، وحقارة شأنك أمامه[2]، وكلما زادت معرفتك بالله، زاد حبك له، وتوجهك إليه، وتعلقك به، وكان تصديقك به صادقاً، وتوحيدك له كاملاً، أما علمتَ أن أول الدين معرفة الله، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده[3].

لم يكن من الهيّن تجاوز هذه العقبة، ولكني تجاوزتها بعد عناء كبير، ووقت طويل دام سنين وسنين، وبذلك تخلفتُ عن الكثير ممن كنتُ أحسبهم قرناء لي في الدرجة والمقام.

---

(١) [مستدرك الوسائل] للميرزا النوري/ ج٣/ ص٥٩: (عن النبي ﷺ: إن من الصلاة لما يقبل نصفها، وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر، وإن منها لما يُلف كما يلف الثوب الخلق، فيُضرب بها وجه صاحبها، وإنما لك من صلاتك ما أقبلتَ عليه بقلبك).

(٢) يمكن لمن يعاني مشكلة هروب الذهن في الصلاة أن يراجع كتاب [الآداب المعنوية للصلاة] للسيد الخميني (قد)/ الفصل ١٠ إلى ١٢، إذ شرح فيه وبأسلوبه العرفاني اللطيف أسباب هروب الذهن في الصلاة وكيفية علاجه.

(٣) نهج البلاغة/ خطبة ١: (أول الدّينِ معرفتُهُ، وكمالُ معرفتِهِ التصديقُ بهِ، وكمالُ التصديقِ بهِ توحيدُهُ، وكمالُ توحيدِهِ الإخلاصُ له،...).



كنتُ ما أن اخرج من عقبة حتى أقع في أخرى، وكنتُ أتمنى العدم والفناء في كثير من مواقف تلك العقبات لشدتها، إذ كان يرافق كل منها عذاب روحي وجسدي، وإني كنتُ في عالم الدنيا لا أطيق الوقوف ساعة تحت أشعة وحرارة شمسها، فما يكون حالي عند الوقوف سنين في صحراءٍ محرقة لا ظل فيها ولا ظليل! إذ لا يوجد منزل كمنازل الدنيا التجأ إليه، ولا شجرة أستظل تحتها، ولا حتى خيمة ألوذ بها، وكلما وضعتُ قدمي على أرضها احترقت فأرفعها لأضع الأخرى، وهكذا كان حال عموم أهل المحشر.

كان عملي الصالح يصاحبني أحياناً ويفارقني أخرى، وذات مرة سألته عن عقبة مساعدة الفقراء والمساكين، فتعجب من سؤالي، وقال:

ـ ما الذي يذكّرك بهذه العقبة؟ وما وجه سؤالك عنها من بين جميع العقبات الأخرى؟

ـ إني لم أحصي جميع العقبات، بل الكثير منها كنتُ غافلاً عنها، وما كنتُ أتوقع يوماً أني سألاقيها، ولكن عقبة مساعدة الفقراء والمساكين ذُكرت في القران الكريم بقول الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[1].

كان يصغي إلى كلامي، وما أن انتهيتُ من تلاوة الآية حتى قال:

ـ لو تمعنتَ في هذه الآية، لرأيتَ أنها لم تذكر فقط عقبة مساعدة الفقراء، بل ذكرت عقبات أخرى وهي تخليص الناس من الرق والعبودية

---

(١) البلد/ ١١ ـ ١٥



بمختلف أنواعها، والأخرى رعاية اليتيم وأداء حقوقه ابتداءً من ذوي الأرحام، وانتهاءً بعموم يتامى المجتمع، والأخرى مساعدة الفقراء والمساكين وسد حاجتهم من الطعام وغيره، ثم ذكرت عقبة الإيمان، والصبر، والرأفة بالناس، حيث الآية التي بعدها تقول: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[1].

علمتُ أن العقبة القادمة هي عقبة صلة الرحم، فاستحضرتُ علاقتي بأقربائي وأهل بيتي، وقلتُ لعملي الصالح:

- إنني كنتُ أصل رحمي، وكان لدي برنامج تفقد القريب والبعيد منهم، كنتُ أساعد المحتاج منهم، وأرشد من يلزم الرشاد. كنتُ لا أبخل عن مدّ يد العون إلى أي شخص يطلب العون مني...

قاطع كلامي بقوله:

- إذا كنتَ كذلك، فلماذا أراك قد اصطحبتَ الخوف معك، فهل كان يخالط أعمالك رياء وحبّ سمعة بينهم؟

- الله يشهد أني كنتُ مراقبا لنفسي في كل أعمالي هذه، وقد وبّختها في كثير من مواقع صلة الرحم التي كنتُ أحسُّ قد خالطها شيء مما تقوله، أو من الشعور بالمنّة والتفضل عليهم. كنتُ أحادث نفسي وأصارعها، وفي آخر المطاف أقنعها بأن الفضل أولاً وآخراً لله تعالى، فهو المتفضل عليّ برزقه أن مكنني من مدّ يد العون لهم، وهو الذي أعطاني العافية في الجوارح لعيادتهم وتفقدهم، وهو الذي وهبني العزّة والكرامة بينهم، فأي فضل لي عليهم؟

---

(١) البلد/ ١٧



ـ إذن لم تخبرني عن أي شيء يخيفك في تجاوز واقتحام هذه العقبة؟

ـ المشكلة أن الحساب هنا ليس كحساب عالم البرزخ، فهو دقيق للغاية، ولا يترك ذرة إلا وادخلها في المحاسبة والميزان، حتى دقائق الأفكار، وذرّات خواطر القلوب، وهذا ما شاهدته في العقبات السابقة، إذ واجهتُ صغائر أعمال ما كنتُ أتصور يوما أن أحاسَب عليها.

تقدّمنا باسم الله لاقتحام عقبة صلة الرحم... ولم أواجه بحمد الله مطبّات تعرقل مسيري فيها، ورأيتُ الكثير من الخلق قد تخلفوا عني وحُبسوا فيها.

أكملنا جميع متطلبات العبور، واقتربنا من الخروج منها و..

يا إلهي، ماذا أرى؟! إني أرى والدتي، نعم هي بعينها! اقتربتُ منها أكثر فرأيتها جالسة تبكي، قد بدا عليها أثر إرهاق وألم شديدين.

ناديتها باسمها فالتفتتْ نحوي، وفوجئتْ واضطربتْ كثيراً حينما رأتني واقفاً أمامها. أحسستُ أن الخجل والحياء الشديدين قد خالجاها، وقد ترددتْ في جوابي، فناديتها مرة أخرى:

ـ أماه، أنا سعيد، ابنكِ في الدنيا، هل تعرفيني؟

رفعتْ رأسها، وأجابتني بصوت ضعيف:

ـ كيف لا أعرفك يا سعيد.

ـ أراكِ شاحبة الوجه، سيئة الحال، فما الذي حدث؟

تحسرتْ، وجرت دمعتها من عينيها، وقالت:

ـ أتذكر خالتك يا سعيد؟

ـ نعم أذكرها، أعلم أنكِ لمدة يسيرة كنتِ لا تتحدثين معها.



ارتفع بكائها، وقالت:

ـ ليتني ما قطعتُ علاقتي معها وهي أختي، ليتني ما أصغيتُ للشيطان الذي كان يمنعني من الوصول اليها، ليتني قبّلتُ قدميها بدلاً عن الإعراض عنها حينما أتتني إلى منزلي تريد المصالحة، وتحذّرني من عواقب الآخرة.

صمتت قليلاً، ثم عادت تقول والحسرة تحرقها، والندامة تكاد تميتها لولا خلود الحياة في عالم القيامة:

ـ ليتني أصغيتُ لكلامكَ يا سعيد يوم أخذتَ بيدي تجرها وتقول: (لنذهب إلى بيت خالتي نصالحها، ونزيل الكدورة بينكِ وبينها). آه.. ليتني سحقتُ تكبّري، وذهبتُ معك يوم ذاك وقبّلتُ قدميها قبل يديها.

كنتُ أعلم أن تأنيبها لنفسها هذا لا يزيدها إلا عذاباً فوق عذابها، ولكن ماذا عساي أن افعل لها. ابتعدتُ عنها، وتركتها تتلوى ألماً، وراحت تجر بشعرها، وتقطّعه، وتنادي:

ـ لا تتركني يا سعيد، أنا أمك، ألستُ أنا التي تحملتُ العناء من أجلك، وسهرتُ الليالي في رعايتك؟

تألمتُ من كلامها، وعدتُ إليها لأقول لها:

ـ أماه، إن كل إنسان هنا رهين عمله، وأنا أيضاً رهين عملي[1]، لا أتمكن من التقدم خطوة واحدة إلا إذا كانت أعمالي وملكاتي تؤهلني لذلك، ولكن لعلي أتمكن من الشفاعة لك في المواقف الأخيرة إن كانت درجتي آنذاك تسمح لي، ودرجتكِ تجيز لكِ استقبالها.

---

(١) المدثر/ ٣٨: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.



غادرتها هذه المرة دون عودة، وابتعدتُ عنها رغم سماعي لصراخها وندائها لي.

خرجتُ من عقبة صلة الرحم، ودخلتُ في عقبة المسؤولية، دخلتُ فيها ولا مناص من الدخول، ولا مجال للفرار منها...

تلقتني ملائكة الغضب بأشكالها المخيفة المرعبة وهيئتهم الموحشة! فأصابني خوف عظيم منهم، وأصبح بدني يرتجف لرؤيتهم، ويرتعش كلما نظرتُ إليهم.

ضربني أحدهم بسوطه فوقعتُ أرضاً، وانشل بدني عن الحركة. نظرتُ لما حولي أبحث عن عملي الصالح فلم أجده، بل رأيتُ آلاف من الخلق قد سقطوا أرضاً، وحال بعضهم مثل حالي، والكثير منهم أسوَء مني.

وبجهد جاهد، رفعتُ رأسي لعلي أجد من يسعفني ويترحم على حالي، ولكني رأيتُ شخصاً قبيحاً، أسود اللون من أعلاه لأسفله، قائم الشعر مكشراً، قد برزت أنيابه الصفراء، ونزلت إلى نصف بدنه، وهو ينظر إلي ويقهقه بصوت عالي، وما أن رفعتُ رأسي، واستقر في مكانه حتى لطمه برجله، ولم يكتفِ بذلك، بل راح يضغط على وجهي ويسحقه، ويقول:

ـ هل ظننتَ أنك لا تقع في مخالبي مرة أخرى، أين عملك الصالح لينجيك؟ لقد هرب ولا ترى له أثراً، وبقيتَ وحيداً في قبضتي.

ما كان لدي القدرة على الكلام معه كي أسأله من يكون، ولكني ظننتُ أنه خلاصة أعمالي السيئة، وقد كان كما ظننتُ.



أحسستُ بذلة موقفي أمام هذا القبيح وقد استفحل علي، ولا سيما قد غمرتني رائحته النتنة التي لا توصف نتانتها، ولا يستطيع أحد تحمّلها.

قال لي مستهزئاً:

ـ كانت تأخذك نشوة الرئاسة عندما يُقال لكَ مدير مشاريع، وتفرح كثيراً بهذا الاسم، وتحس بالعلو على غيرك ممن دونك في المسؤولية والوظيفة.

أحسستُ بزيادة ضرب الأقدام على وجهي وصدري، ولا أدري أهي منه أم من أعوانه الذين أتوا ليشاركوه فرحته، ولا أعلم أين ذهب ملائكة الغضب، إذ لم أعد أسمع لهم صوتاً، ولا أحس لهم أثراً، وأصبحتُ عاجزاً تماماً عن أداء أي شيء، حتى عن رؤيتهم والتكلم معهم...

مضت فترة طويلة وأنا بهذه الحالة، حتى أتى الوقت الذي أحسستُ فيه بأن شخصاً ما يجرني، وجهتُ نظري نحوه وإذا بهم ملائكة الغضب قد عادوا، فسألتهم عما يريدون فعله بي، فجاء الجواب أنه يُراد بي إلى غرفة المحاسبة التي كثيراً ما دخلتها في العقبات السابقة.

دخلتُ غرفة المحاسبة وقد حضر الجميع من متهم، وشهود، وقضاة، ومحامين...

لا تتصوروها كمحكمة عالم الدنيا في مصاديقها، بل بمفاهيمها فقط، فالمتهم أنا، ولكن ليس كمتهمي محاكم الدنيا، إذ كل سمات بدني تشير إلى تهمتي، والشهود ليسوا كشهود الدنيا يُحتمل فيهم الصدق والكذب، بل لا مجال للكذب والخداع هنا، ونفس أعضاء بدني تشهد، والأرض تشهد، والملكان المرافقان لي في الدنيا على يميني وعلى يساري يشهدان، وقادة الأمة يشهدون من الأئمة والأولياء. أما المحامين



فهم أعمالي الصالحة وملكاتي الحسنة! أما القضاة فهم من الملائكة الذين لا يأخذون رشوة، ولا تؤثر فيهم قرابة أو صداقة، وهم موكّلون من الله تعالى الحاكم المطلق الذي هو شاهد على أعمال الخلائق، بل على خواطر أفكارهم، وهمسات قلوبهم ونياتهم، قبل أن يشاهد الشهود ما وقع.

عرض القاضي علي كثيراً مما قصرتُ به في مسؤولياتي تجاه عائلتي والمجتمع الذي كنتُ فيه، وحوسبتُ على ذلك حساباً دقيقاً، حتى وصل المطاف بنا إلى فترة تحمّلتُ فيها مسؤولية إدارة قسم المشاريع في الشركة التي كنتُ أعمل فيها، وليتني ما تحمّلتها ولا قبلتُها.

سألني القاضي عن سبب قبولي مسؤولية إدارة المشاريع لفترة شهرين حتى يعود مديرها من سفره. أطرقتُ قليلا، ثم أجبته:

ـ كان مدير الشركة قد أصرّ كثيراً على قبول طلبه، وعدم رفضه، لأنه لم يجد غيري شخصا آخر نزيهاً يعتمد عليه، ولهذا فإني إستحييتُ منه، وما رفضتُ له طلبه.

ـ وما وجه شعورك بشيء من الفرح الذي دخل قلبك حين معرفتك بالأمر، أهو لأجل أن ذلك يقربك من الله؟ أم لبروز نشوة حب الرئاسة لديك؟

لم أجبه، فأذن القاضي لأحد المَلَكين الذين كانا يرافقاني في الدنيا، فقال الملك الأول بعد أن توجه نحوي:

ـ نحن الملكان اللذان كنّا معك في الدنيا حيث ما كنتَ، أحدنا كان على يمينك، والآخر على يسارك، نراقب أعمالك، ونسجّل خواطرك،



ولا يفوتنا شيء عنك. نحن الذين قال الله عنّا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

قلتُ سبحان الله، كيف يخفى على الله شيء، وأنتما ترافقاني في الدنيا أينما ذهبتُ وخلوتُ.

أجاب الملك الآخر:

ـ الله لا يخفى عليه شيء في السماوات ولا في الأرض، سواءً كنا معك أم لم نكن، فهو يعلم ما في نفسي ونفسك، وقد محى عنك الكثير مما ثبتناه عليك من الذنوب والخطايا، وأنسانا إياها لأنك تبتَ منها، إذ سترها عليك في دار الدنيا وفي الآخرة، ولا يعلم بها الآن أحد غيره.

ـ إذن فما وجه مرافقتكما لي مع إن الله يعلم كل شيء بدونكما؟

أجاب الملك:

ـ إن الله أراد أن نكون حجة ظاهرة عليك، وشهوداً على أعمالك ونياتك، كما إنه أبى أن يُجري الأمور إلا بأسبابها، رغم قدرته على إدارة الوجود وحده.

أخذتني العبرة، وسالت دموعي أسفاً على معصيتي لربي، ربي الذي ستر علي عيوبي وذنوبي التي تبتُ منها، وكم كان يناديني في القرآن، ويدعوني للتوبة، ويوعدني بالغفران والجنان، وسِتر الذنوب، وتبديل السيئات حسنات... لقد صدق ربي وعده ولم يخلفه.

توجه القاضي نحو الملك الرقيب، وطلب منه الاستمرار في الحديث، فاستجاب الملك، وقال:

---

(١) ق/ ١٧ ـ ١٨



ـ لقد استحضر سعيد ذكر الله تعالى في قلبه، ولكنه أيضاً تخيّل نفسه يجلس خلف طاولة إدارة المشاريع، والمهندسون حوله مجتمعون، فأحس حينها بسعادة ورغبة فيما تخيله، وقد كان ذلك أحد الحوافز التي دفعته للقبول.

توجه القاضي إلى الملك الآخر، وسأله:

ـ هل كان لديه أيضاً لحظة القبول قصد إصلاح وضع المشاريع، والحد من السرقات والفساد فيها؟

ـ نعم كان في قلبه ذلك أيضاً.

ـ وما كانت غايته وراء قصده هذا؟ هل كان قصد إصلاح المشاريع خالصاً لله وطلباً للآخرة، أم كان لأجل أن يُقال له أنه مهندس نزيه مخلص؟ أم لأجل أن يرضى عليه مدير شركته؟

كنتُ مندهشا من دقة السؤال والجواب الذي يدور بين القاضي والملك الرقيب الذي أجابه بقوله:

ـ كانت نسبة إخلاصه لله في لحظة الموافقة ٧١، اختلط معها حب الرئاسة بدرجة ٤٢، وحب السمعة بدرجة ١٥، وإرضاء مدير شركته بدرجة ٣١.

توقف الملك عن الكلام، فبادره القاضي بالسؤال منه مرة أخرى:

ـ وهل كانت هناك نيات أخرى في قلبه؟

أجاب الملك سريعا:

ـ نعم كان لديه طموح في زيادة راتبه أيضا.

ـ وكم كانت درجة هذه النية لديه؟



ـ أحد عشر درجة.

لم أكن أفهم ما يقصدوه من هذه الأرقام والدرجات، ولكني كنتُ مبهوراً جداً من دقة الأسئلة وتشعبها، وقلتُ في نفسي الويل لي، هذه كلها عن لحظة الموافقة على تحمل مسؤولية إدارة المشاريع، فكيف سيكون الحساب إذن على ساعات وأيام ما بعد تولي هذه المسؤولية؟!

لم ينتهي بحثهم حول اللحظة المشئومة، إذ عاد القاضي يسأل ولكن هذه المرة مني، إذ توجه نحوي، وقال:

ـ ماذا كان هدفك من زيادة راتبك حينما نويتَ قبول إدارة المشاريع؟ هل كنتَ تنوي صرف فرق الراتب في أعمال الخير؟ أم لتحسين معاش عائلتك؟ أم لشراء شيء ما كنت بحاجة إليه؟ أم ماذا؟

تحيرتُ في إجابته، وأنى لي التذكر للنوايا التي كانت لدي في موقف مضى عليه ما مضى! لذا أشرتُ إلى أحد الملكين وأوكلتُ أمر الإجابة إليه.

أجاب الملك بما أجاب...

واستمرت المحكمة في مرافعاتها، ودخل البحث فيها عن مسائل دقيقة للغاية من قبيل كيفية إدارتي للمشاريع، والتعامل مع المهندسين والعمال والفنيين، ومن قبيل حالات التكبر التي كانت تراودني، ورؤية أفضلية نفسي كمسؤول على غيري.

ودار البحث أيضاً عن الأموال التي تم صرفها بإمرتي، هل كانت في موردها الصحيح أم بإسراف في بعضها، وهل تم إعطاء العمال والمقاولين حقوقهم بصورة كاملة وعادلة دون إفراط وتفريط. وفي كل ذلك كان هناك شهود على الأفعال، إذ شهدت الأرض على بعضها، وفي



الأخرى خُتم على فمي، ونطقت أعضاء بدني لتقول الذي تماهلتُ عن أدائه في الدنيا، ولم أعطه تمام حقه.

وأخيراً وبعد جهد جاهد، وعناء كبير، ومدة طويلة دامت سنين وسنين من الألم والحرقة، تجاوزتُ عقبة المسؤولية، وسُجّلت لي نتيجتها الأخيرة لتضاف مع نتائج العقبات السابقة واللاحقة، إذ على ضوء مجموعها سيكون الحكم النهائي، وتحديد مصير كل إنسان أهو للجنة والنعيم، أم للنار والعذاب الأليم...

وتلت ذلك عقبات كثيرة في الطريق كان علي المرور في بعضها، والمكث في الأخرى، حتى وصلتُ إلى عقبة الحج والعمرة، ولم تكن لدي مشكلة كبيرة فيها، إذ كنتُ قد أديت مراسمهما بعد التوبة إلى الله، كما إني كنتُ دقيقاً في تطبيق أحكامهما، وجعلتُ حينها سفري إلى مكة سفر هجرة إلى الله.

فوجئتُ برؤية أحد رفاقي الذين كانوا معي في سفر الحج وهو بحال سيئ جدا، إذ كان يتلوى ألماً، وتحرقه الحسرة والندامة. اقتربتُ منه، وناديته باسمه:

ـ حامد، ألستَ أنتَ حامد الذي رافقني في سفري إلى مكة والمدينة؟

التفتَ نحوي وهو في حالة يُرثى لها، يبكي مرة، وينظر لي أخرى، ثم قال متلكئاً في كلامه:

ـ نعم أنا هو حامد الذي تراه أمامك، ليتك تساعدني وتنجيني مما وقعتُ فيه. إنهم يقولون إن جزائي سيكون مئة عام في نار جهنم، فكيف بي وأنا لا أطيقها لحظة واحدة!

ـ لكنك أديتَ واجبات الحج معي، فلماذا هذا الجزاء؟



أجاب، وهو في حالة يأس وانكسار شديد:

ـ كان بإمكاني الذهاب للحج في سن الخامسة والعشرين من عمري، ولكني لم أسعى إليه حتى تجاوز عمري الأربعين.

ـ ولكنك ذهبتَ في سن الأربعين؟

ـ صحيح ذلك، كنتُ أعتقد جهلا كما يعتقد أغلب الناس أن الحج لا يجب على الشاب، وأن لديه الخيار في تأخيره إلى أواخر عمره. وعندما أخبرني أحد أصدقائي في وقتها بوجوب الحج عليَّ، وعدم جواز تأخيره، تماهلتُ فيه، ولم أسعى لتأديته.

جرت دموع الحسرة منه، وارتفع صوت بكائه، فسألته:

ـ وماذا حدث الآن؟

ـ الآن تبين لي أثر هذا التقصير، وأن التأخير والتماهل مع الاستطاعة معصية.

ـ ولكن ليس كل من كان يسعى للحج يحصل عليه.

ـ إن هذا العذر لم ينفعني هنا، إذ كان يجب علي الحد الأدنى، وهو السعي له حين التمكن واحتمال الحصول عليه، سواءً بالقرعة أم بغيره[1].

---

(١) لاحظتُ الكثير من شباب مجتمعنا الإسلامي سواءً من الرجال أو النساء لا يبادرون بتسجيل أسمائهم في بعثات الحج، رغم قدرتهم الصحية والمالية، وعدم وجود مانع يمنعهم من الذهاب، وسبب ذلك أنهم لا يعلمون بوجوب الحج الفوري عليهم عند تمكنهم منه، وهذا خطأ فادح في الفهم وجهلا بالحكم، إذ إن فقهائنا يوجبون السعي للحج على البالغ من النساء والرجال، ويقولون بـ: (وجوب الحج بعد تحقق شرائطه فوري، بمعنى وجوب المبادرة إليه في العام الأول من الاستطاعة، ولا يجوز تأخيره).



تمسك بأطرافي متوسلاً بي علّني أنجيه من مأزقه الذي فيه، ولكنني تركته، فماذا بوسعي أن أعمل له، ويكفيني الذي أنا فيه.

لم يبق شيء من عملي، وكلامي، وحركاتي، وفكري، إلا وحوسبتُ عليه، وفي جميع ذلك لم أكن أنكر أي تهمة وُجِّهت إلي، لأني مطمئن بصحتها، كما انه لا يوجد أي مجال لإنكارها. وفي مقابل ذلك كان خلاصة أعمالي الصالحة، وبعض من تلك الأعمال، تقف موقف الدفاع عني بمقدار قوتها التي وهبتها أنا لها في عالم الدنيا، وكان يؤخذ بدفاعها، بينما كنتُ أشاهد غيري ينكر بعض أعماله السيئة، ويصرخ ويتهم المحكمة بالكذب والزور، ولكن هيهات من دوام هذا الإنكار، إذ سرعان ما يُمنع من النطق ليشهد الشهود كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

---

(١) يس/ ٦٥



الفصل الخامس

سقوط في الهاوية

انتهت العقبات وما كادت تنتهي لولا أعمالي الصالحة، وملَكاتي الحسنة التي كنتُ استغيثُ بها عند كل شدة وبلاء. أخبروني أن نتيجة كل هذه العقبات سوف تكون في آخرها، ولكني لا أرى شيئا يدل عليها، ترى أين أجدها؟

سألتُ أحد الملائكة عن هذا الأمر، فقال:

- ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1].

قلتُ له متسائلاً:

- إنني لا أرى كتاباً حتى أقرأه، فأين هو؟

- إن نفسك هي كتاب أعمالك[2]، كما إنها سوف تظهر حين عبورك الصراط الذي يمر في وسط جهنم، وأنت الآن على مشارفه، ولا يتخلف

---

(1) الإسراء/ ١٤

(2) بحار الأنوار/ ج ٦٤/ ص١٢٨: (وقال بعض أرباب التأويل: كل ما يدركه الإنسان بحواسه يرتفع منه أثر إلى روحه، ويجتمع في صحيفة ذاته وخزانة مدركاته، وكذلك كل مثقال ذرة من خير أو شر يعمله يرى أثره مكتوبا ثمة، وسيما ما رسخت بسبب الهيئات وتأكدت به الصفات وصار خُلقا ومَلَكة. فالأفاعيل المتكررة والعقائد الراسخة في النفوس وهي بمنزلة النقوش الكتابية في الألواح كما قال الله تعالى: (أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ)، وهذه الألواح النفسية يُقال لها صحائف الأعمال...).



أي إنسان عن عبوره، حتى الأنبياء والأولياء والمؤمنين، فضلاً عن الكافرين والفاسقين، فأما من كان مصيره الجنة، فسوف يسلكه دون السقوط في الهاوية التي تحته، وأما من كان مصيره النار فسوف يقع ويمكث فيها[1].

التفتُ إلى عملي الصالح بعدما أصابتني رجفة وخوف عظيم، ورحتُ أنظر إليه قلقاً مضطرباً، فقال:

- ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[2].

عظم خوفي واضطرابي، وأمسكتُ بعملي الصالح ملتمساً إياه أن لا يتركني وحدي، فإني أرى الصراط حاد كالسيف، وأرى جهنم سوداء مظلمة تحته.

كنتُ أشاهد العديد قد ركبوه بأمل العبور إلى الضفة الأخرى، ولكن انحرفوا عنه، وسقطوا في جهنم التي كانت تلتهم كل من يسقط فيها، فتأكله نارها، وتغمره ظلمتها، حتى لا نرى له أثراً إلا صراخه وعويله، وبين فترة وأخرى ينادي المنادي لجهنم: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾، فتجيب وتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[3].

في مقابل ذلك كنتُ أشاهد أيضاً أناساً تمكنوا من العبور إلى الضفة الأخرى، ولم يزّلوا عن الصراط، رغم تفاوت فترات عبورهم وصعوبة

---

(١) تفسير الميزان/ ج٨/ ص١٢٧: (ثم الوارد في ظواهر الحديث أن الصراط جسر ممدود على النار يعبر منه أهل المحشر من موقفهم إلى الجنة، فينجي الله الذين آمنوا ويسقط الظالمون من الناس في النار...).

(٢) مريم/ ٧١ ـ ٧٢

(٣) ق/ ٣٠: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.



نجاتهم، فكان البعض تلفحهم النار بعد مساسها لهم، وهم على الصراط، وبعضهم من تحرق أطرافهم فيصرخون، وبعضهم من يعبر الصراط بسرعة فلا يحسّ بتاتاً بحرارة ما تحته... وهكذا كان الحال لمن سبقوني، إذ كلٌّ حسب عمله ودرجته التي خرج بها من الحساب.

أقعدني الخوف والقلق العظيم الذي أحاط بي، فجلستُ أبكي بكاءً شديداً، ورفعتُ يدي متضرعاً إلى الله، داعياً إياه: **(ربي ها أنذا بين يديك خاضع ذليل، إن تعذبني فإني لذلك أهل وهو يا رب منك عدل، وإن تعفو عني فقديماً شملني عفوك، وألبستَني عافيتك، فأسألك اللهم بالمخزون من أسمائك، وبما وارته الحجب من بهائك، إلا رحمتَ هذه النفس الجزوعة، وهذه الرمّة الهلوعة، التي لا تستطيع حر شمسك فكيف تستطيع حر نارك، والتي لا تستطيع صوت رعدك فكيف تستطيع صوت غضبك)**[1].

جاءني النداء من العلي الأعلى فكان معناه: (أي عبدي، إني خلقتُ الأشياء لأجلكَ وخلقتكَ لأجلي[2]، بمشيئتي كنتَ أنتَ الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبإرادتي كنتَ أنت الذي تريد لنفسك ما تريد، وبفضل نعمتي عليكَ قويتَ على معصيتي، وبسوء ظنّك بي قنطتَ من رحمتي، لم أدع تحذيرك، ولم أكلّفك فوق طاقتك، ولم أحمّلك من الأمانة إلا ما قدِرتَ عليه)[3].

---

(١) [الصحيفة السجادية الكاملة] للإمام زين العابدين ﷺ/ دعاؤه في الرهبة.

(٢) [الجواهر السنية في الأحاديث القدسية] للحر العاملي/ ص٥٧: (وجاء في الأحاديث القدسيات إن الله يقول: عبدي خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي، وهبتك الدنيا بالإحسان والآخرة بالإيمان).

(٣) [الجواهر السنية في الأحاديث القدسية] للحر العاملي/ ص٥٧: (عن النبي ﷺ انه=



ارتفع بكائي بعد سماعي خطاب الجليل لي، فناديته معترفا بكل ما اقترفتُ من المعاصي والذنوب أن يا ربي: **(أنا الصغير الذي ربيته، وأنا الجاهل الذي علّمته، وأنا الضال الذي هديته، وأنا الوضيع الذي رفعته، وأنا الخائف الذي آمنته... أنا يا رب الذي لم أستحيك في الخلاء، ولم أُراقبك في الملاء، أنا صاحب الدواهي العظمى، أنا الذي على سيده اجترى، أنا الذي عصيتُ جبار السماء، أنا الذي أعطيتُ على معاصي الجليل الرشا، أنا الذي حين بُشرتُ بها خرجتُ إليها أسعى. أنا الذي أمهلتني فما ارعويتُ، وسترتَ علي فما استحييتُ، وعملتُ بالمعاصي فتعديتُ، وأسقطتني من عينك فما باليتُ)**[1] .

جاءني النداء مرة أخرى: عبدي ماذا تريد مني؟

أي ربي أنت تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك. أريد النجاة من النار.

تأخر الجواب هذه المرة من العلي الأعلى، فخشيتُ أن يكون قد أعرض بوجهه الكريم عني، فناديته: **(إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد، ولا بأمرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرّض، ولا لوعيدك متهاون، لكن خطيئة عرضت وسوّلت لي نفسي، وغلبني هواي وأعانني عليها شقوتي، وغرّني سترك المرخى علي)**[2].

=كان يروى حديثه عن الله عز وجل قال: قال الله يا بن آدم بمشيتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد، وبفضل نعمتي عليك قويت على معصيتي، وبعصمتي وعفوي وعافيتي أديت إلي فرائضي،... لم ادع تحذيرك ولم آخذك عند غرتك، ولم أكلّفك فوق طاقتك ولم أحمّلك من الأمانة إلا ما قدرتَ عليه، رضيت منك لنفسي ما رضيت به لنفسك مني).

(١) مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين عليه السلام.

(٢) مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين عليه السلام.



ما أن أكملتُ مناجاتي حتى أطرق وجودي كله جواب الملك القدّوس: (إني أكرمتُ أوليائي بأن أعطيتهم مقام الشفاعة لخلقي[1]، فالتمس شفاعتهم، وأنا أشفع الشافعين).

قمتُ من مقامي بسم الله الرحمن الرحيم، متوكلاً على الحي القيوم، ملتمسا النجاة بحبي وإتباعي للنبي وآله، فخطوتُ خطوة بعد خطوة نحو الصراط، وأخبرتُ عملي الصالح بأن أعمالي وملكاتي أوصلتني إلى هذا المقام والدرجة، وإني سأمضي أملاً بالشفاعة من محمد وآله، ولا أظن أنهم يبخلون بشفاعتهم لي، لأني ما برحتُ أمشي على هداهم في الدنيا، وأخطو خطاهم، وما خلا قلبي من حبّهم.

تقدمتُ لأضع القدم الأولى
فوق الصراط، فسمعتُ نداءاً من عملي الصالح ينادي باسمي، ويقول:

ـ سعيد، احذر أعمالك السيئة أن تزلك عن الصراط، فتقع في هاوية العذاب.

التفتُ إليه، وأجبته:

ـ إن شاء الله.

عزمتُ على المُضي، فسمعته ينادي مرة أخرى:

ـ سعيد، لا تخدعك المظاهر، وانظر إلى حقائق الأمور، ولا تغرّنك الدنيا بمغرياتها وزينتها.

---

(١) [وسائل الشيعة ـ آل البيت] للحر العاملي/ ج١٤/ ص٤١١: (عن معاوية بن وهب قال: استأذنت على أبي عبد الله عليه السلام فقيل لي: ادخل فدخلتُ فوجدته في مصلاه، فجلستُ حتى قضى صلاته، فسمعته وهو يناجي ربه وهو يقول: يا من خصنا بالكرامة، وخصنا بالوصية، ووعدنا الشفاعة...).



استغربتُ من كلامه، فعن أي دنيا يتحدث، وقد ولّت وأدبرت؟! لا أعلم! على كل حال، وضعتُ القدم الأولى ولساني يردد: (يا محمد يا علي، يا علي يا محمد، إكفياني فإنكما كافيان، وانصراني فإنكما ناصران).

أصبحت لي جرأة على التقدم والعبور، فوضعتُ القدم الثانية، وأنا أتلو الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

وضعتُ القدم الثالثة، وقدّمتُ الرابعة أملاً في المضي أكثر، إذ رأيتُ نفسي لا زالت بخير، ولم أزلّ عن الصراط حتى الآن، ولكن...!

ولكن فوجئتُ بظهور القبيح الأسود أمامي. آه إنه خلاصة أعمالي السيئة ظهر مرة أخرى ليوقعني في الهاوية. يا إلهي، إنه يقف في مسيري، ولا مجال للفرار منه، تقدم نحوي، ووقفتُ أنا في مكاني كالخشبة اليابسة، أنظر إلى الصراط فأراه كالشعر في دقته، وكالسيف في حدّته، وأنظر لما تحته، فأرى جهنم سوداء مظلمة ملتهبة، تنادي هل من مزيد. وصل بالقرب مني، فسألته:

- ماذا تريد مني في هذا الموقف؟

- أريد أن أوقعك في النار لتحترق فيها.

- لماذا؟

- اسأل نفسك قبل أن تسألني الآن.

- وكيف؟

---

(١) الأنعام/ ١٥٣



ـ أما كنتَ تعلم أن عمل السيئات يدخلك النار، ألم يقل لك ربك: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. إذن فلا تلُمني ولُم نفسك، وإنما معاملتي لك هي طبق القانون التكويني الذي وضعه الله لخلقه، وقد أرسل لكم في الأرض من يبلغكم به، ويحذركم منه.

أبرز أنيابه الصفراء مقهقها بصوت عالٍ، فخرجتْ منه رائحة كريهة نتنة. تنفرتُ منه، وقلتُ سبحان الله هذا من صنع نفسي!

أخرج سوطه، وراح يضربني به حتى تحركت قدمي وزلّت عن موضعها، وأصبحتُ على وشك الوقوع، فناديتُ بأعلى صوتي يا زهراء...

بصعوبة بالغة أرجعتُ قدمي إلى موضعها بعد أن لفحتني جهنم ببعض نيرانها. وقفتُ حائراً بين العودة إلى ما كنتُ عليه، وبين السير والتقدم للأمام. نظرتُ أمامي، وإذا بامرأة حسناء جميلة واقفة على الصراط! تمعنتُ فيها جيداً فرأيتها قد لبست أنواع من الحلي، ولوّنت وجهها بألوان متباينة!

أما القبيح فلم يغادرني، بل راح يحثني على النظر إليها، والتمتع بجمالها، وكدتُ أفعل ذلك، لولا تذكري كلام عملي الصالح حين غادرته، إذ قال لي: (لا تخدعك المظاهر، وأنظر إلى حقائق الأمور...)، فيا ترى ما هي حقيقة هذه المرأة، وما هو باطنها وغايتها؟ أتكون كالأفعى ظاهرها ناعم أملس، وباطنها سم قاتل؟ لا أعلم.

---

(١) النمل/ ٩٠



رفعتُ رأسي فوقع نظري عليها مرة أخرى، وإذا بها تبتسم وتشير بأناملها نحوي، وتدعوني للإقبال عليها. وبينما كنتُ حائرا في أمرها، وإذا بي أسمع صوت القبيح يعلو، ويقول:

ـ لا تضيّع هذه الفرصة، تقدم نحوها وتمسك بها، وسوف تأخذك بأمان إلى الضفة الأخرى، سوف تسعد معها سعادة عظيمة، فما بالك متردداً في أمرها؟

سألتُه مستغرباً من كلامه:

ـ كنتَ دائما تتوعدني بالعذاب والنار، فلماذا هذه المرة تدعوني للسعادة والنعيم؟!

أجاب سريعاً:

ـ إن أعمالك الصالحة وملكاتك الحسنة لم تترك لي مجالا لذلك، فيئستُ منك، لذا أردتُ إرشادك في نهاية مسيرتك إلى ما يسعدك، لعلك تذكرني بخير فيما بعد.

تقدمتُ نحوها خطوة بعد خطوة وأنا في حيرة عظيمة من أمري، متردداً بين الخوف منها، وبين الأمل بالنجاة بواسطتها، والسعادة معها. دنوتُ أكثر وأكثر حتى أصبحتُ قريبا منها، فرأيتها نثرت شعرها، وأظهرت زينتها، وأشارت لي بالتقرب منها.

دنوتُ ثم دنوتُ، حتى وقفتُ أمامها، فوضعتْ يديها الناعمتين على وجهي، ومسحتْ عليه، فأحسستُ بلذة في ذلك وقد خالطه الحذر والخوف منها، وخصوصا بعد أن ارتفع صوت القبيح مقهقهاً فرحاً، فقلتُ في نفسي: عجباً أن يفرح هذا القبيح لسعادتي! لابد لباطن هذا الأمر أمر آخر.



قررتُ تركها وعدم الذهاب معها إن طلبت مني ذلك، لذا قلتُ لها:

ـ افتحي الطريق أمامي كي أسلكه وحدي، فإني لستُ بحاجة إليكِ.

قالت، وهي ضاحكة ساخرة مني:

ـ هيهات لك ذلك، كيف أتركك وقد وقعتَ في مخالبي؟!

قلتُ لها:

ـ من أنتِ؟

قالت:

ـ أنا الدنيا.

ـ وماذا تفعلين هنا؟ لقد انتهى دوركِ بعد أن غررتي بزينتك الكاذبة ما لا يحصى من خلق ربي[1].

ضحكت مرة أخرى، وقالتْ:

ـ وخدعتكَ أنت أيضاً، أليس كذلك؟

ـ لا أظن ذلك، وليس لديكِ دليل عليه.

ـ أعظم دليل على ما أقول هو إقبالك نحوي الآن، وهذا الإقبال إنما هو تجسم لتعلقك بي في عالم الدنيا، ولو كان غير ذلك لَما تمكنتُ من خداعك وجذبك وأنتَ على الصراط.

---

(١) نهج البلاغة/ رسالة ٦٨: (من كتاب له عليه السلام إلى سلمان الفارسي: أمَّا بَعْدُ فإنما مَثَلُ الدنيا مَثَلُ الحَيّةِ: ليّن مَسّها، قاتِلٌ سُمُّها، فأعرِض عَمَّا يُعجبُكَ فيها لِقلّةِ ما يَصْحَبُكَ مِنها، وضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا لِمَا أيْقَنْتَ به مِنْ فِراقِهَا وتَصَرُّفِ حالاتِهَا، وكُنْ آنَسَ مَا تكونُ بها أحذَرَ مَا تكونُ مِنْهَا، فإنَّ صَاحِبَها كُلَّمَا اطمأنَّ فِيهَا إلى سُرُورٍ أشْخَصَتْه عَنْهُ إلى مَحْذورٍ...).



ـ وماذا تريدين فعله معي؟

ـ إن كل من يتعلق بي، ويخلد إلى الأرض، ويعمل لأجلي، ظناً منه أني دار مقر لا ممر، سوف يسقط في الهاوية، وتكون النار مستقراً له في الآخرة، ومقدار العذاب فيها إنما يتبع درجة تعلقه بي.

قالت ذلك، ودفعت بي جانباً، فزلّت قدمي عن موضعها، وتحركت الأخرى، وخرجتُ عن الصراط لأسقط في هاوية النار...

لحظات لا تُنسى، إنها لحظات السقوط من الصراط متجهاً نحو جهنم... نعم إنها لحظات الوقوع في النار، وقد بلغتْ فيها حسرتي وندامتي ذروتها، وملامتي لنفسي قمتها، فقلتُ لها يا نفسي: أما كنتِ تعلمين أن من تغره الدنيا وزينتها يكون مصيره الآن ما أنا سائر إليه؟ أما كان الأجدر بكِ أن تستثمري ساعات الدنيا القصيرة بما ينجيك من ذلة وعذاب مواقف القيامة التي مضت، وما ينتظركِ أقسى وأمر؟ أما وضعتِ القدم الثابتة على صراط جسر الدنيا الذي أرشدكِ أهل الدين إليه؟ يا نفسي ذوقي عذاب النار، فما أصبركِ عليها.

حقيقةً أصبحتُ حاقداً على نفسي حتى هممتُ بقتلها! ولكن لا فناء في هذا العالم، ثم هل هي نفس شخص آخر غيري؟ أم هي أنا وأنا هي؟ إن شخصيتي في الدنيا كانت عين روحي لا بدني، وعين روحي هي عين نفسي، لم تفنى حين الموت الأول، ولا في البرزخ ولا بعده، فهي باقية بقاء الأبد[1]، وهي التي تأخذ جزاء لذاتها الفانية، ومسؤولية أوامرها الخاطئة.

---

(١) [تفسير الميزان] للسيد الطباطبائي/ ج١٩/ ص١٣٥: (قد تقدم في المباحث السابقة=



وصلتُ الطبقة الأولى من جهنم، فجرّني خزّانها إليهم، وسحبوني نحوهم. قيدوا عنقي بالسلاسل، فقلتُ لهم:

ـ لِمَ تعاملوني بهذه المعاملة القاسية؟ إني كنتُ سيد جنة في عالم البرزخ بعدما تطهرتُ فيه، فأين ذهب كل ذلك؟

أجابني أحدهم برفقة سوط شلّني عن الكلام، فقال:

ـ انك لم تُحاسَب في البرزخ إلا على الجزء اليسير من أعمالك وعقائدك، فتطهرتَ منها ودخلتَ جنته، ولكن في عالم القيامة يكون الحساب شامل ودقيق على كل أعمالك وعقائدك، وأفكارك، وملكاتك، صغيرها وكبيرها، مما لم تُحاسب عليه في البرزخ[1].

لم ينفعني ذلك معهم، إذ حملوني وسلكوا بي طريقاً طويلاً في جهنم، وخلال ذلك شاهدتُ مناظر يشيب الرأس لرؤيتها، فكيف بمن هو مستقر فيها...!

رأيتُ بركة تسمى (ماء الحميم)، يُسمع من على بُعدٍ فوران ما فيها، ورأيتُ أناسا يشربون منها، فتتورم شفاههم العليا حتى تغطي أنوفهم وأعينهم، وتتورم شفاههم السفلى حتى تصل إلى صدورهم. وهناك أناس

=غير مرة أن شخصية الإنسان بروحه لا ببدنه، والروح لا تنعدم بالموت، وإنما يفسد البدن وتتلاشى أجزائه، ثم إذا سوي ثانيا مثل ما كان في الدنيا ثم تعلّقت به الروح كان الإنسان عين الإنسان الذي في الدنيا...).

(١) [تفسير الميزان] للسيد الطباطبائي /ج١٠/ ص١٥٠: (وما يسكن فيه في البرزخ من جنة أو نار، إنما هو كالنزل المعجّل للنازل المتهيئ للقاء والحكم، وليس ما هناك حسابا تاما ولا حكما فصلا ولا جزاء قاطعا... وبالجملة الدنيا دار عمل، والبرزخ دار تهيؤ للحساب والجزاء، والآخرة دار حساب وجزاء).



آخرون يشربون من بركة أخرى، ذات رائحة نتنة عفنة مملوءة بعرق الكفار ودمائهم، تسمى(غسّاقا)[1].

ومررنا من بعيد على مواقع في جهنم، فرأيتُ ناراً عظيمة مشتعلة، وملائكة الغضب يُلقون الناس فيها وينادونهم ألم يأتكم نذير، وكلما ألقوا فيها فوج ازدادت توقداً وسعيراً، وسُمع لها شهيقاً وزفيراً[2]، وبين مدة وأخرى يُخرَجون منها وقد احترقت جلودهم، فصارت كالفحم الأسود، والنار ملتهبة في أحشائهم التي باتت ظاهرة بعد أن انسلخ الجلد منها. كنتُ أشاهد توسلهم بالملائكة حين يُخرجون أن لا يلقوهم في النار مرة أخرى، وأسمعُ صراخهم وندائهم أن يا مالك ليقض علينا ربك، فيأتيهم الجواب أن لا فائدة من صراخكم هذا، إنكم فيها ماكثون[3].

ازددت خوفاً واضطراباً حين شاهدتُ تلك المناظر المرعبة والمشاهد المخيفة، فسألتُ الملائكة المأمورين معي عمّا يراد فعله بي، فلم يجبني أحد! بل لم يلتفت لكلامي حتى يجيبني.

مضينا إلى حيث يشاء الله لنا، ولا أعلم أي شيء أراده الله لي، وإلى أي أمر سيؤول مصيري...

مضينا حتى وقفنا عند مجموعة من الملائكة وقد اجتمعوا حول إنسان يعذّبوه. شاهدتُ ملكاً أتاه فثقب صدره إلى ظهره، وآخر نتف شعر رأسه، وآخرون كانوا يضربوه بمقامع من حديد مُحمر، بينما كان ذلك الشخص يصرخ، ويقول: أما ترحموني... أتاه الجواب من الزبانية: يا

---

(١) النبأ/ ٢٤ ـ ٢٦: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا﴾.

(٢) الملك/ ٧ ـ ٨: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

(٣) الزخرف/ ٧٧: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾.



شقي، كيف نرحمك ولا يرحمك ارحم الراحمين، أفيؤذيك هذا؟ فقال: اشد الأذى. فأجابوه: يا شقي، كيف لو قذفنا بك في نار جهنم التي لم تدخلها بعد!

صرفتُ نظري عنه بعد أن أصابتني رعشة في بدني من قساوة ما شاهدته، وشاب شعر رأسي خوفاً من أن يكون عذابي مثله. لم يمضي وقت حتى سمعتُ ذلك الإنسان وقد صرخ صرخة عظيمة، فالتفتُ نحوه وإذا به قد قذفوه في أعماق النار...

توجه أحد الزبانية الذين كانوا يعذبونه إلى الزبانية المأمورين معي، وقال لهم:

ـ لقد هوى في العذاب سبعين ألف سنة! فماذا عن صاحبكم؟

أجابوه، وقالوا له:

ـ انه من أمة النبي الخاتم محمد ﷺ، ونحن قد أُمرنا بإيصاله إلى وادي عذاب الموحّدين من أمته.

قال الملك:

ـ إذن صاحبكم ذو حظ عظيم، وسوف لن يشاهد مراحل العذاب الكبرى في الطبقات السفلى.

مضينا في مسيرنا مرة أخرى، ويبدو أن الطبقة الأولى من جهنم أيضاً لها دركات مختلفة من العذاب، ففي كل مرة أشاهد أنواع تختلف في الشدة والدرجة عما قبلها، وشاهدتُ في بعضها رجالا تُقطّع ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من نار، ثم يُرمى بها، وبعد السؤال علمتُ أنهم كانوا خطباء الناس وشعرائهم الذين يقولون مالا يفعلون[1].

---

(١) [وسائل الشيعة ـ آل البيت] للحر العاملي /ج١٦/ ص١٥١: (قال ﷺ رأيتُ ليلة=



وفي بعضها رأيتُ عقارب سوداء حجمها كالبغال، تلسع بعض الناس فيهربون منها، ولكن هيهات لهم الفرار، إذ تستقبلهم حيّات سوداء مرعبة ضخمة في هيئتها، طويلة أنيابها، تخرج النيران من أفواهها لتلسعهم هي الأخرى، فيصرخون ويهربون منها ليعودوا للعقارب من جديد، وهم كذلك في دوّارة بين هذه وتلك.

كان الزبانية معي يعاملوني بقسوة خلال مسيري معهم، ولكنها كانت في نظرهم جيدة، رغم الضرب والسياط منهم، والذي كان يأتيني من كل جانب وبين الحين والآخر، إذ قال لي أحدهم ذات مرة:

ـ إن مأموريتنا إيصالك إلى وادي عذاب الموحّدين، لذلك فنحن نُظهر لك احترامنا حتى وصولنا إليه، ولا تخف كثيراً، فإن ما تشاهده في هذه الطبقة من جهنم هو أدنى درجات العذاب فيها، وسوف لا نقودك إلى الطبقات السفلى منها.

استمر مسيرنا في أخف طبقات جهنم كما يزعمون! حتى انتهينا إلى مجاميع من نسوة كُنَّ يُعذَّبن بألوان العذاب. أوقفوني هناك، وقال لي أحد الملائكة المأمورين معي بعد أن أشار إليهن:

ـ لا تظن أنهن من الأمم السالفة، بل من أمة نبيكم خاتم الأنبياء.

تمعنتُ فيهن فأنكرتُ شأنهن، وارتعشتْ فرائصي لعذابهن، إذ رأيتُ امرأة معلّقة من شعرها، ويُسمع صوت غليان دماغها، وفوران أحشاء رأسها. وأخرى معلقة من لسانها، والحميم يُصب في حلقها، وأخرى كانت تأكل لحم جسدها وتقطّعه بأنيابها، وقد توقدت النار من تحتها.

=أسري بي إلى السماء قوما تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ثم ترمى، فقلتُ يا جبرائيل من هؤلاء فقال: خطباء أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون).



ألوان عذاب لا يتحملها الناظر لها، فكيف بمن وقع فيها!

وجهتُ نظري نحو مجاميع أخرى، فوقع بصري على امرأة قد شُدّت رجلاها إلى يديها، وقد سُلطت عليها العقارب والأفاعي تلدغ بها، ولفت نظري امرأة أخرى كان رأسها رأس خنزير، وبدنها بدن حمار، وهي تُعذب بأنواع لا تحصى من العذاب. وأخرى على صورة كلب والنار تدخل في دبرها، وتخرج مِن فيها، والملائكة يضربون رأسها وبدنها بمقامع من نار...!

أصابني خوف شديد مما رأيتُه، وقلتُ سبحان الله! أهذا مصير نساء أهل الدنيا اللواتي اغتررن بها. قادني فضولي إلى السؤال من الملائكة، فتوجهتُ نحو أحدهم، وقلتُ له:

ـ ماذا كان عملهن وسيرتهن حتى يُسلَّط عليهن هكذا أنواع من العذاب؟

أجابني، وقال:

ـ أما المعلقة من شعرها فإنها كانت لا تستره عن الرجال، وأما المعلقة من لسانها فكانت تؤذي زوجها، وأما التي تأكل جسدها وتقطعه بأنيابها، فهي التي كانت تزيّن بدنها وتجمّله للناس[1]، وأما التي شُدّت

---

(١) مما يؤسف له أن نساء مجتمعنا الحالي قد غفلن عن الكثير من لوازم الحشمة الواجبة عليهن وهن في خضّم الحياة مع الرجال، فقد ترى المرأة ترتدي (الربطة) المتعارفة عندنا، ولكنها تغفل عن المتممات الواجبة الأخرى للحجاب، من قبيل ستر القدمين بالجورب، أو عدم تزيين الوجه بمواد التجميل المعروفة في مجتمعنا، أو عدم لبس الزينة الظاهرة كالمعضد والخاتم والقلادة وأمثالها، أو عدم ظهور أي جزء آخر من بدنها عدى الوجه والكفين أمام الرجال، وسواءً في الدائرة التي تعمل فيها، أو في السوق والأماكن العامة. والشرع لا يفرّق في ذلك بين أن تكون أمام الغريب الذي لا تعرفه، =



يداها إلى رجليها، والعقارب والأفاعي تلدغ بها، فإنها كانت قذرة في ثيابها، ولا تراعي وضوئها، ولا تتنظف بالاغتسال من النجاسات التي توجب الغُسل عليها.

لم يكمل الملك شرح سبب عذاب جميع الأصناف التي شاهدتها، لذا بادرته بالسؤال مرة أخرى:

- وما بال التي رأسها رأس خنزير، وبدنها بدن حمار؟

أجاب، وقال:

- هي النمامة الكذابة. والأخرى التي على صورة الكلب فهي النوّاحة المغنّية[1].

انطلقنا بعد توقف يسير حتى اقتربنا من شجرة كبيرة جداً تخرج في أصل الجحيم، فطلبتُ من الملائكة المأمورين معي الذهاب إليها لأكل بعض الشيء منها، إذ بلغ بي الجوع مبلغه، وأصبحتُ حاضراً لتناول أي شيء أسدّ به رمقي، وأطفئ به عطشي، والغريب أن هذه المرة استجابوا لطلبي، وقادوني لتلك الشجرة!

=وبين زميلها في العمل، أو قريبها في النسب والعشيرة، بل يوجب الحجاب الكامل عليها أمام كل هؤلاء من غير المحارم عدى الزوج.

(١) ورد مضمون عذاب هذه الأصناف من النساء في الحديث ٢٤ من كتاب عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق/ ج١/ ص١٣: عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: (دخلتُ أنا وفاطمة على رسول الله صلى الله عليه وآله فوجدته يبكي بكاءً شديدا، فقلتُ فداك أبي وأمي يا رسول الله ما الذي أبكاك؟ فقال يا علي ليلة أسري بي إلى السماء رأيتُ نساء من أمتي في عذاب شديد فأنكرتُ شأنهن فبكيتُ لما رأيتُ من شدة عذابهن، ورأيت امرأة معلقة بشعرها يغلى دماغ رأسها، ورأيتُ امرأة معلقة بلسانها والحميم يصب في حلقها، ورأيت امرأة معلقة بثدييها، ورأيت امرأة تأكل لحم جسدها والنار توقد من تحتها، ورأيتُ...).



اقتربنا منها أكثر وأكثر، فإذا بها شجرة مرعبة موحشة في شكلها وطلعها، إنها شجرة الزقّوم، وهي كما قال عنها القرآن الكريم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[1]، عليها سبعون ألف غصن من نار، وفي كل غصن سبعون ألف ثمرة من نار، وكل ثمرة كأنها رأس شيطان قُبحا ونتنا، وقد تعلق على كل غصن من الزقوم سبعون ألف من الرجال والنساء، وكانت النار تدخل أدبارهم وتطّلع على أفئدتهم وتخرج من أفواههم[2].

حاولتُ العودة، وتوسلتُ بهم للتراجع عن طلبي، ولكن لا جدوى ولا سبيل لذلك. أكلتُ من ثمرها كُرهاً فإذا بها أمرّ من الحنظل، وانتن من الجيف، وأحر من الجمر، واصلب من الحديد! وقعت في بطني فأصبحتْ تغلي في أحشائي كغلي الحميم. إلهي ماذا افعل، ثمرة واحدة عملت بي ما عملت، فكيف بمن طعامه الدائم منها!

رميتُ بنفسي من أعلى الشجرة إلى أودية أسفلها، لعل وضعها يكون أفضل، وحرارتها أقل، ولكنها كانت أودية مذابة من الصفر والنحاس، واشد حرّا من النار والزقوم التي هربتُ منها. وقعتُ في تلك الأودية فرأيتُ فيها أناساً سبقوني السقوط فيها، وهي تغلي بهم، ثم ترميهم على حوافها، حيث هوام النار من الحيّات والعقارب والوحوش المرعبة في أشكالها، ولم يكن حالي يختلف عما شاهدته من أحوال الذين كانوا هناك، إذ رُمي بي إلى حافة الوادي، فراحت العقارب تقترب مني، والحيات تتراقص فرَحاً بقدومي...!

---

(١) الصافات/ ٦٥

(٢) [الاختصاص] للشيخ المفيد/ ص٣٦٣: وفيه حديث طويل في وصف شجرة الزقوم.



تمعنتُ فيها فإذا لكل عقرب منها ستون شوكة، وفي كل شوكة قلة من السم، ومما زاد الطين بلة أن أحد خزنة جهنم قال لي: إن لسعة سم واحدة لهذه العقارب تبقى تؤلمك وتصرخ منها أربعين عاماً!

أما الحيّات فهي سوداء مزرقة، أقبلت نحوي...

هربتُ منها وقد مَدّت أنيابها، فلسعتني لسعة صرختُ منها صرخة عظيمة، وأحسستُ بألم لو اجتمع أهل الدنيا ما تمكنوا من تخيله، فكيف حال من يذوقه!

اجتمعتْ وحوش أخرى من جهة، والأفاعي والعقارب من جهة أخرى، وتعلّقوا بي، وراح كل واحد منها يلدغ في بدني، ويمزّقه ويقطّعه، ثم يفعل فيه ما يشاء، وأنا أصرخ وأستغيث وما من مغيث...

أشار لهم خازن النار بالابتعاد عني، فابتعدوا ولكن بأي حال تركوني.. تركوني ممددا على الأرض، لا اعلم أي الآلام أشكوها، وأي الجروح أداويها، فكل بدني سموم وجروح وقروح.

فتحتُ عيني بعد جهد كبير، وإذا بكلاب ضخمة كالجمال، سوداء في لونها، مخيفة في هيئتها، إنها كلاب من نار، تنتظر أمر الحملة على هذا العبد المسكين! وقد جاءها الأمر بذلك، فحَمَلت حملة واحدة، وراح كل واحد منها يقتطع قطعة من بدني، فتسيل الدماء منه، ثم يُدفع بتلك القطعة في حلقي لتمزق أمعائي بحرارتها مع ما بها من رائحة نتنة عفنة، وتكرر ذلك حتى لم يبق لجلدي وجود، وانكشفت أحشائي، فراحت الكلاب تدوس على عظامي وتنهشها، آه، ليت في النار عَدَم وفناء...



ظهر خازن النار وسط هذه الغبرة وهو يشير نحوي، ويقول:

ـ أتأكل لحم أخيك في الدنيا وتطلب الفناء الآن، أتسمع الغيبة على المؤمنين ولا ترد عليها[1].

ناديته بما لدي من طاقة وقوة ضعيفة:

ـ متى كان ذلك؟ إني تركتُ الغيبة وفررتُ منها كفراري منكم الآن.

لم اسمع جواباً، وبقيتُ على هذه الحالة، وفي كل مرة يُعاد لي جلد جديد، وتعود العقارب والحيات ثم الكلاب، وكأن كل واحد منها قد عرف دوره، فيؤديه بأحسن ما يكون!

وبعد هذه المدة الطويلة جاءني الجواب من خازن النار، وقد أعطى الأمر للجميع بالانصراف:

ـ في يوم كذا أغتيب في حضرتك فلان فلم تنصره، ولم تنطق بكلمة واحدة تدافع بها عنه مع قدرتك على ذلك[2]، وفي يوم كذا مرّ فلان

---

(١) إن أغلب الناس يستصغرون ذنب الغيبة مع أن القرآن الكريم يصفها بأبشع صورة باطنية لها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، وفي رواية أن (رسول الله ﷺ لما رُجم الرجل في الزنا، قال رجل لصاحبه: هذا أقعص كما يُقعص الكلب، فمر النبي معهما بجيفة، فقال: انهشا منها، فقالا يا رسول الله ننهش جيفة؟ فقال: (ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه). وتعريف الغيبة هي ذكرك أخاك بما يكره، ومن منا لا يكره أن تُذكر عيوبه أمام الآخرين؟ كما أن الغيبة لا تكون غيبة باللسان فقط، بل يمكن أن تكون بإشارة، أو تصرف خاص يصدر من المغتاب ويشير به إلى ذلك العيب أو النقص، بل قد يكون بابتسامة خاصة، أو نظرة معينة يُفهم منها ذلك.

(٢) [وسائل الشيعة ـ آل البيت] للحر العاملي/ ج١٢/ ص٢٩١: (في وصية النبي ﷺ لعلي ؏: يا علي من اغتيب عنده أخوه المسلم فاستطاع نصره فلم ينصره خذله الله في الدنيا والآخرة).



أمامك فغيّرتَ ملامح وجهك، وأشرتَ إليه بيدك اشارة فهم الحاضرون منها استحقارك له[1].

لم يكن لي سبيل لإنكار ما ذكره، ولكني اعترضتُ عليه من جهة أخرى، وهي طول مدة الجزاء بمقابل خطأ كهذا، فقلتُ له:

- ثلاث سنين من العذاب لأجل هذا الذنب الصغير؟

غضب الملك، وقال:

- أما علمتَ في الدنيا أن الغيبة اشد من الزنا[2]؟

نكستُ رأسي، وأجبته:

- نعم قد علمتُ ذلك، ولكن هل جزاءه ثلاث سنين من العذاب، وبهذا الشكل منه؟ أمن العدل ذلك؟ أم هل هناك تناسب بين العمل والجزاء الذي تعذبون به عباد الله؟

رفع الملك كل أنواع العذاب عني، وأزال آلامي، فتمكنتُ من الجلوس والتحدث معه، حينها قال لي:

- إن عذابك عندي قد انتهى.

كنتُ أنتظر كلاما آخر منه تعليقاً وجواباً على ما اعترضتُ عليه، ولكنه لم ينطق بشيء، فبادرته هذه المرة بالشكوى منه:

---

(١) [جامع السعادات] للشيخ النراقي/ ج٢/ ص٢٢٦: (عن عائشة قالت: دخلتْ علينا امرأة، فلما ولّت أومأتُ بيدي أنها قصيرة، فقال ﷺ: إغتبتيها).

(٢) [الخصال] للشيخ الصدوق/ ص٦٣: (عن النبي ﷺ أنه قال: الغيبة أشد من الزنا، فقيل يا رسولله ولم ذلك؟ قال: صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه، وصاحب الغيبة يتوب فلا يتوب الله عليه حتى يكون صاحبه الذي يحلّه).



- إني أشكوك إلى الله الواحد القهار الذي لا يظلم عباده مثقال ذرة، ولا يجازي أحدا بأكثر من ذنبه.

توجه نحوي، وقال:

- أي أمر تعني؟

- إني لم أعصِ الله إلا لحظات، ولم أجلس في مجالس الغيبة إلا ساعات، فلماذا هذا العذاب ثلاث سنين؟ لماذا لا يكون ساعات أيضاً؟

اطرق الملك قليلا، ثم أجاب:

- أما رأيتَ في الدنيا إنساناً قذف بنفسه من جبل، فتكسّرت أعضائه، وأصبح عاجزاً عن المشي والحركة طوال حياته في دنياه؟ لماذا لم تقل إن الخطأ كان لحظات فقط، فلماذا حُرِم من الحركة عمراً بكامله؟ وهل أن أحداً عاقبه بهذا الجزاء في العجز عن الحركة، أم انه كان جزاء وأثر طبيعي لعمله هذا؟

لم أجبه بأي كلام لأني رأيتُ كلامه لا شائبة فيه، لذا استأنف حديثه، وقال:

- إن كل ما لاقيتَه من عذاب في جهنم وستلاقيه، إنما هو أثر أعمالك السيئة، وأنت صنعته لنفسك، وليس لك الحق في الاعتراض عليه، مثلما ليس لك حق الاعتراض عندما تُدخل قضيباً في عينك، ثم تعترض لماذا العمى في العين كان سنين، مع إن الإدخال كان في لحظة واحدة.

لم يبق لي أي مجال في محاججته، لذا سلك فكري طريقاً آخر، وذهب خيالي إلى مسألة الشفاعة والتوسل بها، ولكن الملك بادرني سريعاً بقوله:

- حتى الشفاعة التي تتأملها من أهل المقامات العالية، إنما هي اثر



لارتباطك بهم، وسلوكك طريقهم، كما إنها لا تتحقق لك إلا إذا كنتَ قد هيأتَ شروطها في عالم الدنيا، ورفعتَ موانعها.

لم تمضِ فترة طويلة حتى أتاني مجموعة من زبانية جهنم، فأصابني خوف عظيم منهم، وارتعش كل بدني حين رأيتهم. امسكوا بي وسحبوني بقسوة، فقلتُ لهم: إلى أين هذه المرة؟ فقال أحدهم:

- إن في جهنم واديا تعوذ منه النار كل يوم أربعمائة مرة، أُعدّ للمرائين من القرّاء، ويسمى وادي جب الحزن[1].

- ولكني لم أكن من قرّاء المنابر على الناس.

قال ملك آخر:

- كنتَ تقرأ على زملائك النصائح والمواعظ حتى يُقال عنك أنك إنسان تحب الخير لهم، ولا تبغي إلا رضوان الله فيهم، وكنتَ تنصح رياءً بما لم تفعله، وتوصي بما لم تسعَ لأدائه قبل الوصية به. كنتَ تظن أن عملك هذا لله، ولكن لو تمعّنتَ فيه قليلاً لوجدته للناس قبل أن يكون لله.

في تلك الأثناء مرّ بنا مجموعة كبيرة من الملائكة ومعهم آلاف مؤلفة من الناس المسودة وجوههم، المحترقة أبدانهم، يصرخون ويستغيثون، وقد شُدت في أعناقهم سلاسل غليظة من نار. التفتَ لي احد الملائكة، وقال:

- أشكر الله أن لم تكن معهم. هؤلاء المتكبرون على الناس وعلى الله،

---

(١) [جامع السعادات] للنراقي/ ج٢/ ص٢٩٠: (وقال ﷺ استعيذوا بالله من جب الحزن، قيل وما هو يا رسول الله؟ قال: واد في جهنم أعد للقراء المرائين).



والمكذبون لرسوله، وهم المخلَّدون في النار، وإنما يُساقون الآن إلى الطبقات السفلى من جهنم، إلى وادي سقر، وهل تعلم ما سقَر[1]؟

كيف لي بالعلم به، وأنا لم أدخله، وعلمي به في الدنيا لا يغني من حقيقته شيئاً، لذا أجبته:

- كلا، لا أعلم.

قال:

- إنه وادي يفوق جميع أودية جهنم في حرارته، إذ إنه برغم كونه دار عذاب للمتكبرين، شكا ذات مرة إلى الله شدة الحرارة فيه، فأذن الله له أن يتنفس قليلا، فتنفس وإذا به يُحرق جهنم ونيرانها[2]!

قلتُ سبحان الله! أي نار هذه التي تحرق نيران غيرها! سألتُ الملك عن كيفية عذابهم فيه، فقال:

سيجعلونهم في توابيت مغلقة من حديد تلتهب النار فيها، وفي كل تابوت منها مسامير من حديد نار محمرة تُغرز في بدن من يُعذب داخلها مع سبعين ألف نوع آخر من العذاب، ثم تُجعل تلك التوابيت في توابيت أخرى مقفلة، ثم يُقذفون في أسفل الجحيم، ليبقوا فيها أبد الآبدين.

انتهى الحوار، وسيق بي إلى وادي المرائين، فرأيتُ فيه مد البصر من البشر ما لا تُحصى أعدادهم، والكل يبكي وينادي بالويل على نفسه.

---

(١) المدثر/ ٢٣ ـ ٢٨: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾.

(٢) وسائل الشيعة/ ج١١/ باب تحريم الكبر: (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن في جهنم لواديا للمتكبرين يُقال له سقر، شكى إلى الله عز وجل شدة حرّه وسأله أن يأذن له أن يتنفس فتنفس فأحرق جهنم).



استقبلتني الزبانية بأسواط مؤلمة، ومقامع من نار ملتهبة، ثم قال لي أحدهم:

ـ يا شقي، هل تريد ثواب أعمالك الصالحة التي عملتها في الدنيا؟

استغربتُ من سؤاله هذا، فأجبته:

ـ نعم أريدها، فلعلها تنجيني من شر هذا الوادي وعذابه؟

ضحك ساخراً من كلامي، وقال:

ـ يا خاسر، لقد عملتَ بما أمر الله عز وجل، ولكنك أردتَ به غيره، ورغبتَ في مدح سواه. ويا شقي لقد حبط عملك، وبطل أجرك، ولا خلاق لك اليوم، فالتمس ثوابها ممن كنتَ تعمل له، وهيهات لك ذلك(١).

قال كلامه هذا، وألقى بي من أعلى الوادي، ولم أصل إلى أسفله إلا وأنا مكسّر الأضلاع، مهشم العظام، قد دخلتْ الأشواك في جميع أنحاء بدني، وما أن وصلتُ حتى استقبلتني زبانيته وأنا في هذه الحال لتقودني إلى النار، إلى أنواع جديدة من العذاب...

بقيتُ في هذا الوادي سنين عدّة، وأي سنين! كل لحظة فيها كانت تعادل ألف عام أو تزيد عن ذلك، لقسوتها، وشدة ألم العذاب فيها، حتى جاء اليوم الذي أتتني فيه ملائكة الغضب الذين ساقوا بي إلى هنا ليخرجوني منه، وينقلوني إلى مكان آخر.

سألتهم عن أي مكان يُراد بي، فجاءني الجواب:

---

(١) [الكافي] للشيخ الكليني/ ج٢/ ص٢٩٣: (قال أبو عبد الله عليه السلام: كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله).



- إلى وادي عذاب الموحّدين من أصحاب الذنوب الكبيرة.

استغربتُ من كلامه، فكيف يكونوا موحّدين وهم أصحاب كبائر! ثم إني متى كنتُ أرتكبها، حتى يُساق بي إلى هناك؟

اعترضتُ عليهم بأني لم أرتكب ذنوبا كبيرة في دنياي، وقلتُ لهم:

- إذا كنتم على صواب في أخذي إلى هناك، فقولوا لي أي كبيرة عملتها؟

جاءني الجواب برفقة سوط من أحدهم:

- هناكِ الكثير من الذنوب الكبيرة كنتَ تعملها ظنا منك أنها صغيرة، وهي ليس كذلك، ثم أما علمتَ أن الاستهانة بصغائر الذنوب، والإصرار عليها يُعد من الكبائر[1]؟

(١) [وسائل الشيعة - آل البيت] للحر العاملي/ ج ١٥/ ص٣٣٨: (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار. وعن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال: الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله، ولا يحدّث نفسه بالتوبة، فذلك الإصرار).





الفصل السادس

في وادي الموحّدين

دخلنا وادي الموحدين، فإذا به من البشر ما لا يُحصى عدده، وكلهم مِن أصحاب الكبائر من الموحّدين الذين ماتوا على كبائرهم، غير تائبين منها، وكل من دخل منهم في هذا الوادي لا تزرق عينه، ولا يسود وجهه، ولا يُقرن بالشيطان، ولا يقيّد بالسلاسل، كما أنهم لا يجرعون الحميم، ولا يلبسون القطران...

كنتُ ضمن مجاميع الموحدين من أمة النبي الخاتم ﷺ، فسألتُ أحدهم حين الدخول معهم: كم سيكون المكث هنا؟ فقال:

- بعضهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج، ومنهم من يمكث سنة، وأطولهم فيها مكثا بقدر الدنيا منذ خُلقت إلى أن فنيت(١)!

---

(١) [تفسير الميزان] للسيد الطباطبائي /ج ١٢/ ص ١٠٢: (عن علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: إن أصحاب الكبائر من موحدي الأمم كلها الذين ماتوا على كبائرهم، غير نادمين ولا تائبين، من دخل منهم جهنم لا تزرق أعينهم، ولا تسود وجوههم، ولا يُقرنون بالشياطين، ولا يغلون بالسلاسل، ولا يجرعون الحميم، ولا يلبسون القطران، حرم الله أجسادهم على الخلود من اجل التوحيد، وصورهم على النار من اجل السجود، فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه، ومنهم من تأخذه النار إلى عقبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى فخذيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مكثا بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى).



جزعتُ من جوابه، فما أصبرني على العذاب فيه!

مضت فترة ونحن بانتظار أمر الجليل فينا، حتى أتى الوقت الذي جاءنا فيه (مالك) خازن كل النار، وهو يحمل أمر العزيز الجبار.

نهض جميع ملائكة الوادي من خزان جهنم، ورأيتُ حالهم قد اضطرب، والكل غادر موضعه ليصطف مع أهل جنسه بشكل صفوف منتظمة مرتبة. لم يمضِ وقت حتى أتى مالك، وهو ملك عظيم الخلقة، مهيب الشكل، مرعب الوجه، قاطب عابس، له من الهيبة والعظمة بدرجة أن زبانية النار لا يتجرؤون على الكلام معه، إلا من أذن له.

توجه مالك نحو بعض من الملائكة، وسألهم:

ـ من هؤلاء؟ ما ورد علي من الأشقياء أعجب منهم، لِمَ لمْ تسود وجوههم، ولم توضع السلاسل والأغلال في أعناقهم؟

تكلّم احد الملائكة، ويبدو انه رئيس مجموعة فيهم، فقال:

ـ هكذا أتونا، فسقناهم إلى هنا بانتظار أمركَ فيهم.

توجه مالك نحونا، فارتعشت أبداننا رهبة منه، ثم قال:

ـ يا معشر الأشقياء من انتم؟

أجاب جمع منا وكنتُ معهم:

ـ نحن ممن أُنزل علينا القرآن، ونحن ممن كنا نصوم شهر رمضان، ونحج بيت الله الحرام، و..

قال مالك:

ـ ما نزل القرآن إلا على النبي الخاتم محمد.

سمعنا اسم محمد ﷺ، فصحنا وصاح الجميع معنا:

ـ نعم، نحن من امة النبي الخاتم محمد.



قال:

ـ أما كان لكم في القرآن زاجراً عن معاصي الله؟ أما كان لكم في رسول الله وعترته أسوة حسنة إن كنتم ترجون الله واليوم الآخر؟

أصابتنا الخيبة من كلامه، ونكسنا رؤوسنا إلى الأرض خجلاً واستحياءً منه، وارتفعت أصواتنا بالبكاء، حتى لم تبق لعيوننا دموعاً بعد جفافها، فبكينا دماً!

إستغرب مالك منا ذلك، فقال:

ـ أتبكون دما، فما أحسن لو كان هذا في الدنيا من خشية الله، ولو كنتم كذلك ما مستكم النار اليوم.

توجه نحو الزبانية، وقال لهم:

ـ يا خزنة جهنم، ألقوهم في النار، فإنهم قد عصوا أمر الجبار، ويا نار خذيهم.

ضج الجميع، وعلت الأصوات، والكل ينادي (لا اله إلا الله)، حتى تراجعت النار عن موضعها، فتوجه مالك نحوها، وقال:

ـ يا نار أمرتكِ بإحراقهم، فافعلي ما تُأمرين به.

ارتعشت النار خوفاً من مخالفة أمر مالك، ثم قالت:

ـ كيف آخذهم يا مالك وهم يقولون (لا إله إلا الله).

قال مالك لها:

ـ نعم خذيهم، فبذلك أمر رب العرش.

لم ترفض النار أمر مالك بعد أن علمت أن الأمر من العلي الأعلى، فبدأت تأخذ بنا كل حسب منزلته، ولا سبيل للفرار والتخلف عنها، فمنّا من أخذته إلى قدمه، ومنا من أخذته إلى ركبتيه، ومنا من أخذته إلى عنقه.



أما أنا فقد أتتني النار لتأخذني، فهربتُ منها ولحقتني حتى حُجزتُ في موضع لا مجال للفرار منه، حينها وقفت النار أمامي وفرائصي ترتعش منها، وقالت:

- يا شقي، أما علمتَ أن لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار؟

قلتُ لها:

- إني تبتُ من كل ذنب كبير، والصغائر كنتُ غافلاً عنها، فلماذا احترق بكِ؟

اشتد لهيبها وكأنها غضبت من كلامي، ثم قالت:

- هي الغفلة يا شقي، هي الغفلة.

قالت ذلك وارتفع شهيقها، وقفزت نحو قدمي، فصرختُ ألما من حرارتها، وناديتُ بأعلى صوتي: لا، لا تحرقي قدمي، لا تحرقيها..

لم تسمع ندائي، ولم ترحم صراخي، فلصقت بهما حتى احترق جلديهما، وراحت تتوغل في أحشائهما وعظامهما...

العجب كل العجب أني سمعتُ شخصاً بجنبي قد أخذته النار إلى فخذيه يحسدني على حالي، ويقول لي: ليتني كنتُ مثلك، ليت النار لم تحرق إلا قدمي!

أرادت النار أن تأخذ وجوه بعض من في الوادي، فصاح بها مالك:

- لا تحرقي جباههم، فلطالما سجدوا للرحمن عليها، ولا تحرقي قلوبهم، فلطالما عطشوا في شهر رمضان، ولا تحرقي لهم السنة فلطالما تلوا بها القرآن.

أنفذ الله حكمه فينا، وبقينا على هذه الحالة ما شاء الله لنا من المدة الطويلة. وبرغم تلك الآلام العظيمة، والمصيبة الجسيمة، وشدة الزحام



وضيق المكان، وبرغم صراخ المعذَّبين، وصياح المحترقين، وجدتُ لي موضع جلوس في الوادي، فجلستُ للتفكير والدعاء للجبار، وقلت في نفسي: أليس كل عمل في الدنيا يظهر باطنه هنا، فأين بواطن دعائي في ليالي الجمعة؟ أين مناجاتي بدعاء الجوشن الكبير في ليالي القدر؟ وأين تجسمات دموعي خوفاً من ناره وطمعاً في جنته؟

ما إن تذكرتُ ذلك حتى طرق فكري جُمل من دعاء كميل، ووجدتُ في نفسي القدرة على مناجاة ربي ودعائه، فناديته بأقدام محترقة، ودموع جارية: (يا إلهي وسيدي وربي، أتراك معذبي بنارك بعد توحيدك، وبعدما انطوى عليه قلبي من معرفتك، ولهج به لساني من ذكرك، واعتقده ضميري من حبك، وبعد صدق اعترافي ودعائي خاضعا لربوبيتك)[1].

نظرتُ لما حولي، فرأيتُ جمع كبير من أهل الوادي قد اجتمعوا ليسمعوا دعائي ويرددوا معي. استأنفتُ معهم الدعاء متضرعاً، وقد غرق الجميع بالبكاء: (إلهي ومولاي، أتسلط النار على وجوه خرّت لعظمتك ساجدة، وعلى السن نطقت بتوحيدك صادقة، وبشكرك مادحة، وعلى قلوب اعترفت بإلهيتك محققة، وعلى ضمائر حوت من العلم بك حتى صارت خاشعة، وعلى جوارح سعت إلى أوطان تعبدك طائعة)[2].

توقفتُ عن الدعاء، فتوقف الجميع، ولم يبق غير ضجيج البكاء من الرجال والنساء، فقلتُ لهم:

ـ يا موحّدين، ولسنا بموحّدين، لو كان توحيدنا لله كاملا لما ارتكبنا صغيرة ولا كبيرة، فاسألوا الله أن لا يعاملنا بعدله، بل بفضله وكرمه، ادعوا الله بألسنة جريحة: (إلهي أنت الجواد الذي لا يضيق عفوك، ولا

---

(١) مقتطف من دعاء كميل للإمام علي عليه السلام.
(٢) مقتطف من دعاء كميل للإمام علي عليه السلام.



ينقص فضلك، ولا تقل رحمتك، وقد توثقنا منك بالصفح القديم والفضل العظيم والرحمة الواسعة. أفتراك يا إلهي تُخلف ظنوننا أو تخيب آمالنا، كلا يا كريم)[1].

توقفتُ مرة أخرى، فارتفعت الأصوات أكثر، وقد سالت دموعهم حتى صارت انهاراً تجري تحتنا، وألسنتهم تنطق مرددة (كلا يا كريم، كلا يا كريم...).

التفتُ للملائكة فرأيتهم مبهورين، على حيرة من أمرهم، صامتين لا يصدر منهم أي رد فعل لما حدث، وهم لا يتجرءون على محاسبة أي واحد منا.

مضت فترة ونحن ندعو الله، ونتوسل إليه، ونطلب منه أن يأذن بشفاعة نبينا فينا، حتى وصلتنا الأخبار من الملأ الأعلى تقول بأن الله تعالى سأل جبرائيل: (ما فعل العاصون من أمة محمد)؟ فقال جبرائيل: (إلهي أنت أعلم بهم)، فقال عز وجل: (انطلق يا جبرائيل وانظر ما حالهم).

انطلق جبرائيل متوجهاً إلى مالك، فوجده جالساً على سرير من نار في وسط جهنم، فلما نظر مالك إليه، قام تعظيماً له، وقال:

ـ يا جبرائيل، ما أدخلك في هذا الموضع؟

أجابه عن سبب دخوله، ثم سأله، فقال:

ـ يا مالك، ما حال العصابة من أمة محمد خاتم الأنبياء؟

أجابه مالك، وقال:

ـ ما أسوء حالهم، وأضيق مكانهم، قد أحرقت النار أجسامهم،

(١) مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين عليه السلام.



وأكلت لحومهم، وبقيت وجوههم وقلوبهم يتلألأ فيها الإيمان. يا جبرائيل أنت تعلم أني لو خالفتُ العزيز الجبار قيد أنملة فيهم لاحترقتُ.

سمع جبرائيل منه ذلك، فطلب منه أن يرفع الطبق عنا حتى ينظر الينا.

أحسستُ في وقتها أن هناك أمر ما سوف يحدث، إذ شاهدتُ الخزنة قد غيروا أمكنتهم، وتنادوا فيما بينهم أن ارفعوا طبق جهنم، فقد جاء زائر كريم يطّلع على حال من تحته.

رفعوا الطبق عنا، وإذا بأنظارنا تقع على مخلوق في غاية من الجمال والهيبة بين صفوف الملائكة. تمعنتُ في صورته وهيئته، فعلمتُ انه ليس من ملائكة العذاب، وكيف يكون كذلك وهو يستبشر كل من يشاهده وينظر إليه. تساءلنا فيما بيننا عمن يكون، إذ لم نر من قبل مخلوقاً أحسن منه وجهاً، وأجمل منه صورة.

لم تطل حيرتنا طويلاً في أمره، إذ نادى فينا مالك ليخبرنا بأن هذا الذي أمامكم هو جبرائيل الكريم على الله، هذا الذي قال الله تعالى بشأنه في القرآن: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(١)، فهو أمين الوحي على نبيكم الخاتم محمد، فهل عرفتموه؟

ضج الجميع، وراح الناس يتساءلون فيما بينهم عن سبب مجيئه، وغاية حضوره. أما أنا فاستبشرتُ كثيراً بقدومه، وقلتُ في نفسي لعل ذلك مقدمة لنجاتنا، الله اعلم.

تقدمتُ نحوه بصعوبة بالغة، إذ كنتُ أحسنهم حالاً رغم أن النار أحرقت قدماي، والألم بلغ مبلغه مني، وكلما تقدمتُ أكثر اصطحبتُ

---

(١) التكوير/ ٢٠ ـ ٢١



معي أناسا هم في درجتي حتى وصلناه، فانبهرنا أكثر من عظمة خلقه، وبهاء صورته.

اضطربتُ عندما توجه نحوي جبرائيل وأنا في حالة يُرثى لها، فقال لي:

- كيف حالكم وماذا تريدون؟

أجبته بلسان من يتلكأ في كلامه:

- يا جبرائيل، يا من حمل أعظم أمانة إلى أكمل إنسان خلقه الله، يا من هو ذي قوة عند ذي العرش مكين، يا من هو في الملأ الأعلى مطاع ثم أمين، اقرأ نبينا محمد منا السلام، وأخبره أن معاصينا قد فرّقت بيننا وبينه، وأخبره بسوء حالنا وأننا بانتظار شفاعته فينا.

لم يطل بقائه فينا بعد أن علم منا ما نريد، إذ غادرَنا، ثم أُغلق طبق جهنم علينا مرة أخرى، وما علمنا بعدها ماذا حدث حتى وصلنا خبر يقول: إن جبرائيل بعد أن ذهب من هنا قام بين يدي الله تعالى، فقال الله له: (يا جبرائيل كيف رأيتَ العصاة الموحّدين من امة محمد؟)، فأجاب جبرائيل: (يا رب أنت أعلم بهم، ما أشد حالهم وأضيق مكانهم، تركتهم يستغيثون بنبيهم، ويطلبون شفاعته فيهم).

قال الله تعالى: (هل سألوك شيئا؟)، فقال جبرائيل: (نعم يا رب، سألوني أن اقرأ على نبيهم السلام واخبره بسوء حالهم)، فقال الله تعالى: (انطلق إلى حبيبي محمد وابلغه ذلك).

انطلق جبرائيل ودخل على النبي محمد ﷺ وهو في خيمة من درّة بيضاء، ولها أربعة آلاف باب، ولها مصراعان من ذهب، فقال له بعد السلام عليه: (يا محمد جئتك من عند العصاة الموحّدين من أمتك، وقد



تركتهم يُعذَّبون في النار، وهم يقرءوك السلام، ويقولون: ما أسوء حالنا، وأضيق مكاننا، فأين نبينا ليشفع فينا)[1].

لم يترك النبي ﷺ الحال كما هو، وهو مظهر رحمة الله، إذ أتى عند العرش وخر ساجداً، وأثنى على الله ثناءً لم يثنه أحد مثله، فقال الله عز وجل: (ارفع رأسك يا محمد، واسأل تعطى، واشفع تُشفَّع)، فقال النبي ﷺ: (يا رب، إن الأشقياء من أمتي قد أنفذتَ فيهم حكمك، وأنت ارحم الراحمين)، فقال الله تعالى: (قد شفعتك فيهم يا محمد، فأتِ النار وأخرج منها من قال لا اله إلا الله، وكان أهلا لشفاعتك).

بلغ شوقي أشده لرؤية النبي الخاتم وأهل بيته بعد علمي بما حدث، فهؤلاء كانوا هم الأنوار المنيرة في الدنيا، وهم شهداء دار الفناء، وشفعاء دار البقاء، وتذكرتُ حينها قول عملي الصالح وإخباره لي بأن الشفاعة ستنالني في آخر المطاف.

تعقبتُ أخبار النبي وآله، فعلمتُ أنهم قد وصلوا إلى مالك، وحينما نظر إليهم قام لهم تعظيماً لمقامهم، فقال النبي الخاتم ﷺ بعد السلام عليه: (يا مالك ما حال أمتي من الأشقياء؟)، فقال مالك: (هم في حالة سيئة جدا، قد أحرقتهم ذنوبهم حتى وصلت لدى بعضهم إلى أعناقهم، وهم يستغيثون ويصطرخون، ولشفاعتك يتأملون).

قال الخاتم ﷺ: (يا مالك افتح الباب، وارفع الطبق عنهم).

فُتح الباب، ورُفع الطبق عنا...

---

(١) المضمون الإجمالي لأحداث عذاب الموحدين من أمة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وزيارة جبرائيل لهم في جهنم، ولقائه مع مالك، وطلبهم الشفاعة من نبيهم، وغيرها من الوقائع التي وردت في هذا الجزء من الرواية تم استخلاصها من الرواية الواردة في كتاب [عالم ما بعد الموت] للفيض الكاشاني/ باب ١٥/ ص٢٦٩ إلى ٢٧٦.



يا إلهي ماذا أرى، إنهم خمسة أنوار يحيط بهم الملائكة من كل جانب، إنهم أصحاب الكساء الخمسة، نعم، هم فاطمة وأبيها، وبعلها وبنيها، هم أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومهبط الوحي، ومعدن الرحمة...

أجل، ها هو رسول الله يتقدمهم، وقد أضاء كل ما في الوادي من انعكاس أنوارهم بعد أن كان معتماً شديد الظلمة. أما خزنة جهنم فقد قاموا جميعا إجلالاً، وأمروا الناس بالقيام إكراما للنبي وآله، ثم عم صمت وهدوء في كل الأرجاء، وأنظار الجميع متوجهة نحوهم، قد شغل الناس عن أنفسهم جمال صورهم، وعظمة خلقهم، وشدة أنوارهم.

حاول جمع عظيم من المعذَّبين من الناس التوجه نحو خاتم الأنبياء، والاقتراب منه، فلم يتمكنوا من ذلك، إذ هم لا يطيقون نوره عن قرب، ومقامهم لا يسمح لهم بنَيل ما يرمون إليه، لذا نادوه من مكان بعيد، وطلبوا شفاعته فيهم ونجاتهم مما أصابهم.

أجابهم خاتم الأنبياء ﷺ بغير ما كانوا يرجون! وبدأ الحديث معهم بغير ما يتأملون! إذ قال لهم: (يا أهل هذا الوادي من أمتي، أجيبوني ماذا فعلتم بالثقلَين من بعدي؟)[1].

صمت الجميع ولم يجبه أحد، وأصابتهم دهشة شديدة من سؤاله منهم، ولكن لم يطل الموقف هذا كثيراً حتى تعالت الأصوات مرة أخرى من هنا وهناك تقول:

ـ يا رسول الله، وما الثقلين؟

---

(١) [الكافي] للشيخ الكليني/ ج ٢/ ص ٦٠٠: (قال أبو جعفر عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: أنا أول وافد على العزيز الجبار يوم القيامة وكتابه وأهل بيتي ثم أمتي، ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتي).



أجابهم خاتم الأنبياء مستنكراً سؤالهم، إذ قال: ألم أقل لكم: (**إني قد تركت فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، وأحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض**)[1].

اجتمع أصحاب الأصوات المتفرقة في مكان واحد، ودار الحديث بينهم وبين الخاتم ﷺ، إذ قالوا له:

ـ أما كتاب الله فقد عملنا به، وأما عترتك فلم نعرفهم يا رسول الله.

رد عليهم رسول الله معترضاً على جوابهم، فقال: (كيف تدّعون أنكم عملتم بكتاب الله دون العترة، وقد أخبرتكم أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، وقد فرّقتم بينهما. أنتم لم تعرفوا حقائق كتاب الله وأسراره لأنكم لم تعرفوا عترتي حتى يعرّفوكم به، وهل يمكن العمل بالشيء دون معرفته؟).

ساد الصمت بينهم من جديد، وبدت آثار الحيرة على وجوههم، وتشاوروا أمرهم فيما بينهم، ثم قالوا:

ـ إن علمائنا لم يعرّفونا بعترتك، بل تجاهلوا حتى أسمائهم، ولم يذكروها في كتبهم، ونحن تبعناهم، وسرنا على خطاهم، أملا في الوصول إلى الجنة.

أجابهم خاتم الأنبياء بقوله: (إن علمائكم الذين عرفوا الحقيقة، واستيقنوا بها، ثم جحدوها وحجبوها عنكم، إنما هم الآن في الدركات

---

(١) [بحار الأنوار] للعلامة المجلسي/ج ٢٣/ ص١٠٦: (نص حديث الثقلين). وهذا الحديث من الأحاديث المتواترة التي لم تُذكر في كتب الشيعة فقط، بل وردت في كتب أهل العامة أيضاً من قبيل: مستند أحمد بن حنبل /ج٣/ ص١٤، وسنن الترمذي /ج٥/ ص٣٢٩، وكنز العمال للمتقي الهندي /ج١/ ص١٧٢ وغيرها من المصادر الأخرى.



السفلى من النار. أما أنتم فهلاً سألتم عن الثقل الأصغر الذي لا يفارق كتاب الله من هم؟ هلا سألتم ماذا يقولون، وبماذا يأمرون؟ وهلا حاسبتم علمائكم عن سبب تركهم لهم)[1].

لم ينقطع كلام الخاتم، ولم تنتهي حجته على أمته، فاستمر ليقول: (ثم كيف تقولون أنكم عملتم بكتاب الله، وكتاب الله يقول لكم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[2]، وقد بين القرآن لكم من هم ولاة أمركم، كما بينتُ أنا لكم ذلك، فلا أطعتم الله، ولا رسوله فيكم، ولا أطعتم ولاة أمركم).

لم يتكلم أحد قط تعقيباً على كلامه، لذا استأنف الرسول ﷺ عتابه لهم، فقال: ألم اقل لكم: (إن مثَل أهل بيتي فيكم مثَل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق)[3]. ألم اقل لكم: (النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف)[4].

ضج الناس جميعاً بالبكاء على اثر عتاب الرسول الخاتم لهم، ولكنه استمر في كلامه، فقال:

- (إن أحاديثي هذه وعشرات أمثالها موجودة في كتب مذهبكم لو

---

(١) إن كلام وخطابات خاتم الأنبياء ﷺ والتي ذكرناها في أحداث هذا الجزء من الرواية ورَد معناها في الأحاديث والروايات والكتب المعتبرة، وليس بالنص الحرفي منه ﷺ، سوى ما كُتبت بالخط الغامق وذكرنا مصدرها.

(٢) النساء/ ٥٩

(٣) [كنز العمال] للمتقي الهندي/ ج١٢/ ص٩٨: (عن رسول الله ﷺ: إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق).

(٤) [المستدرك] للحاكم النيسابوري/ ج٣/ ص١٤٩: (عن رسول الله ﷺ: النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف).



تفحصتم وتعقبتم، ولكنكم أسلمتم رقابكم لأئمتكم، واتبعتموهم دون تحكيم عقل، أو تدقيق أمر).

أصبحنا لا نسمع إلا أنين بكاء الناس وعويلهم، وقد طغى عليه صراخ جمع من النساء والرجال، ودعائهم على أنفسهم بالويل والثبور، ثم تعالت أصوات أخرى تنادي رسول الله أن: (نستميحك العذر يا خاتم الأنبياء).

توجه رسول الله ﷺ نحو علي عليه السلام، وأشار إليه، ثم خاطب الناس، وقال: (ثُم مالكم اختلفتم من بعدي في علي وذريته، وقد أخبرتكم في أول بعثتي أن: **(هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم)**[1]، وأمرتكم بالسمع والطاعة له، ولكنكم أجبتموني باتبّاع فلان وفلان دونه، وقطّعتم دينكم إلى فرق ومذاهب، وتركتم حبل الله المتين، فبقي القرآن وحيداً غريباً يفقد صاحبه، ومفسّره، ومَن يعلم تأويله وبواطنه. وفي موطن آخر قلتُ لكم: **(من أراد أن يحيى حياتي ويموت ميتتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي، فليتول علي ابن أبي طالب، فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة)**[2].

طال الحديث بين الطرفين حتى لم يبق للناس حجة على رسول الله، حينها أعرض عنهم، وأشار إلى علي وفاطمة والحسن والحسين، وقال للناس الكلام الأخير في حقهم:

---

(١) [ميزان الحكمة] للشيخ محمد ريشهري/ ج١/ ص١٣٧: (عنه ﷺ مشيرا إلى علي عليه السلام: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا).

(٢) [المستدرك] للحاكم النيسابوري/ ج٣/ ص١٢٨: (قال رسول الله ﷺ: من أراد أن يحيى حياتي، ويموت ميتتي، ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي، فليتول علي ابن أبي طالب فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة).



(إن الله تعالى خلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين في عالم الملكوت قبل أن يخلق أبيكم آدم عليه السلام بألفَي عام، حين لا سماء مبنية، ولا أرض مدحية، ولا جبال مرسية، ولا بحار مجرية، ولا رياح مسرية، ولا شمس مضيئة، ولا قمر منور، ولا ظلمة ولا نور، ولا جنة ولا نار).

تعالت الأصوات من هنا وهناك:

ـ كيف ذلك يا رسول الله؟

قال:

ـ لمّا أراد الله أن يخلقنا، تكلّم بكلمة خلق منها نوراً، ثم تكلّم بكلمة أخرى فخلق منها روحاً، ثم مزج النور بالروح فخلقني وخلق هؤلاء الأنوار الأربعة، فكنا نسبّحه حين لا تسبيح، ونقدّسه حين لا تقديس، فلما أراد الله أن ينشئ خلقه، فتق نوري فخلق منه العرش، فالعرش من نوري، ونوري من نور الله، ونوري أفضل من العرش، ثم فتق نور أخي علياً فخلق منه الملائكة، فالملائكة من نور علي، ونوره من نور الله، وعلي أفضل من الملائكة، ثم فتق نور ابنتي فاطمة فخلق منه السموات والأرض، فالسموات والأرض من نور فاطمة، ونورها من نور الله، وهي أفضل من السموات والأرض، ثم فتق نور الحسن، وخلق منه الشمس والقمر، ونوره من نور الله، وهو أفضل من الشمس والقمر، ثم فتق نور الحسين فخلق منه الجنة وحور العين، ونوره من نور الله، وهو أفضل من الجنة وحور العين[1].

---

(١) [بحار الأنوار] للعلامة المجلسي/ ج ١٥/ ص ١٠: (عن النبي صلى الله عليه وآله قال: إن الله خلقني وخلق عليا وفاطمة والحسن والحسين قبل أن يخلق آدم عليه السلام حين لا سماء مبنية، ولا أرض مدحية، ولا ظلمة ولا نور ولا شمس ولا قمر ولا جنة ولا نار، فقال العباس: فكيف كان بدء خلقكم يا رسول الله؟ فقال: يا عم لما أراد الله أن يخلقنا تكلم بكلمة=



قال خاتم الأنبياء كلامه هذا، ثم أشار لعلي وفاطمة أن اشفعوا في أمتي لمن ترونه لائقا لشفاعتكم، متّبعا لولايتكم[1].

غمرتني فرحة كبيرة حين علمتُ بذلك، ورأيتُ أنه ليس من المناسب طلب الشفاعة منهم دون أداء التحية لهم، وبيان مقامهم أمام هذا الجمع العظيم، لذا جمعتُ عدداً من المؤمنين بولايتهم، والسائرين على نهج مدرستهم، وتوجهتُ بهم نحو تلك النفوس العارفة، والأنوار المنيرة.

تمكّنا من الدنو منهم بعد اختراق بعض حجب النور بيننا وبينهم، وبما يتناسب مع درجة ولايتنا لهم، حتى توقفنا عند الحد الذي لا يجوز لنا تخطّيه، فناديتهم بقلب عاشق لهم، وأديتُ التحية بخطابي إياهم، والجمع يردد معي ما أقول:

(السلام عليكم يا أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي، ومعدن الرحمة، وخزّان العلم، ومنتهى الحلم، وأصول الكرم، وقادة الأمم)[2].

السلام عليكم يا من هم **(الصراط الأقوم، وشهداء دار الفناء، وشفعاء دار البقاء، والرحمة الموصولة، والآية المخزونة، والأمانة المحفوظة، والباب المبتلى به الناس، من أتاكم نجا ومن لم يأتكم هلك. إلى الله تدعون وعليه تدلّون).**

=خلق منها نورا، ثم تكلم بكلمة أخرى فخلق منها روحا، ثم مزج النور بالروح، فخلقني وخلق عليا وفاطمة والحسن والحسين، فكنا نسبحه حين لا تسبيح، ونقدسه حين لا تقديس...).

(١) [في ظلال التوحيد] للشيخ جعفر السبحاني/ ص ٥٥٤: (قال رسول الله ﷺ: إني لأشفع يوم القيامة وأشفع، ويشفع علي فيشفع، ويشفع أهل بيتي فيشفعون).

(٢) مقتطف من الزيارة الجامعة الكبيرة المروية عن الإمام علي النقي عليه السلام.



السلام عليكم يا من (خلقكم الله أنوارا فجعلكم بعرشه محدقين، حتى من الله علينا بكم فجعلكم في بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، وجعل صلاتنا عليكم، وما خصّنا به من ولايتكم، طيبا لخلقنا، وطهارة لأنفسنا، وتزكية لنا، وكفارة لذنوبنا، فكنا عنده مسلمين بفضلكم، ومعروفين بتصديقنا إياكم)[1].

كان الجميع آذان صاغية لما أقول من المدحة العظيمة للنبي وآله، ورأيتُ الكثير منهم قد انبهروا من علو مقام تلك الأنوار، حينها سمعنا أصوات الناس من خلفنا تردد معنا أداء التحية والثناء عليهم، فاستأنفتُ، وكل من في الوادي يردد معي: السلام عليكم يا من (بلغ الله بكم اشرف محل المكرمين، وأعلى منازل المقرّبين، وارفع درجات المرسلين، حيث لا يلحقه لاحق، ولا يفوقه فائق، ولا يسبقه سابق، ولا يطمع في إدراكه طامع، حتى لا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا صدّيق ولا شهيد، ولا عالم ولا جاهل، ولا دني ولا فاضل، ولا مؤمن صالح، ولا فاجر طالح، ولا جبار عنيد، ولا شيطان مريد، ولا خلق فيما بين ذلك شهيد، إلا عرّفهم جلالة أمركم، وعِظم خطركم، وكِبر شأنكم، وتمام نوركم)[2].

توقفتُ عن مدحتي لهم، وساد صمت بين جموع الناس في الوادي، فقام الجميع إجلالاً للنبي وآله بعد علمهم بمقامهم ومنزلتهم عند الله، وتغيرت ملامح معظم الناس، خجلاً مما جهلوه عن نبيهم وأوصيائه. وبين دهشة البعض وخجل الآخر، وبين بكاء الباكين أسفا، وحسرة المتحسرين ندما، تقدمتْ الزهراء تزهو بنورها البرّاق...

---

(١) مقتطفات من الزيارة الجامعة الكبيرة المروية عن الإمام علي النقي عليه السلام.

(٢) مقتطف من الزيارة الجامعة الكبيرة المروية عن الإمام علي النقي عليه السلام.



نعم، تقدمت فاطمة بعد أن أوحى الله عز وجل لها أن يا فاطمة: سليني أعطك وتمني علي أرضك، فقالت فاطمة: (إلهي أنت المنى وفوق المنى، أسألك أن لا تعذّب محبي ومحبي عترتي بالنار).

توقفتْ عن الدعاء، وألقت بنظراتها العميقة نحو جمع الناس العظيم، وكأنها عرفت سرائرهم وأحوالهم، ثم عادت لتناجي الرب العظيم، وتقول: (إلهي وسيدي، سميتني فاطمة وفطمتَ بي من تولاني وتولى ذريتي من النار، ووعدك الحق، وأنت لا تخلف الميعاد).

جاء النداء من العلي الأعلى أن: (صدقتِ يا فاطمة إني سميتكِ فاطمة، وفطمتُ بكِ من أحبكِ وتولاكِ وأحب ذريتكِ وتولاهم من النار، ووعدي الحق وأنا لا اخلف الميعاد، يا فاطمة وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني، لقد آليتُ على نفسي من قبل أن أخلق السماوات والأرض بألفي عام أن لا أعذب محبيك ومحبي عترتك بالنار[1]. يا فاطمة قد أوكلتُ أمر هؤلاء لكِ لتشفعي فيهم فأشفّعكِ، حتى يتبين لملائكتي وأنبيائي ورسلي وأهل الموقف موقعكِ مني، ومكانتكِ عندي. يا فاطمة من قرأتِ بين عينيه مؤمنا ومحبا فخذي بيده وادخليه الجنة)[2].

---

(١) [بحار الأنوار] للعلامة المجلسي/ ج٢٧/ ص١٤٠: (... فيوحي الله عز وجل إليها: يا فاطمة سليني أعطك، وتمني علي أرضك، فتقول: إلهي أنت المنى وفوق المنى، أسألك أن لا تعذب محبي ومحبي عترتي بالنار، فيوحي الله إليها: يا فاطمة وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لقد آليت على نفسي من قبل أن أخلق السماوات والأرض بألفي عام أن لا أعذب محبيك ومحبي عترتك بالنار...).

(٢) [كشف الغمة في معرفة الأئمة] لابن أبي الفتح الإربلي /ج ٢/ ص ٩١: (عن أبي جعفر ﷺ قال: لفاطمة ﷺ وقفة على باب جهنم... فتقول إلهي وسيدي سميتني فاطمة وفطمت بي من تولاني وتولى ذريتي من النار ووعدك الحق وأنت لا تخلف الميعاد، فيقول الله عز وجل صدقتِ يا فاطمة، إني سميتك فاطمة وفطمت بك من أحبك=



أقبلت فاطمة وسط الجمع، وهي على نجيب من نور، وقد أحاط بها من كل جانب سبعون ألف ملك. أقبلت وجبرائيل عن يمينها، وميكائيل عن شمالها، وعلي أمامها، والحسن والحسين ورائها، ثم نادى منادٍ فينا أن غضوا أبصاركم حتى تجوز فاطمة بنت محمد، إذ لا طاقة لكم على تحمّل نورها، فما بقي أحد منا إلا وغض بصره، وأغمض عينيه.

بدأت فاطمة تلتقط شيعتها ومحبيها من النار كما يلتقط الطير الحب الجيد من الحب الرديء، تلاها علي ثم الحسن، ثم الحسين، حتى أصبحت أعدادنا كبيرة جداً، وكنتُ أنا أحدهم، نعم، كنتُ ممن التقطتني فاطمة بشفاعتها.

قادتنا ملائكة الرحمة، وأخرجونا من النار، وتركنا ورائنا جمع كثير من الناس يصطرخون ويستغيثون، مرة للزهراء يلتمسون، وأخرى بأبيها يتوسلون، وآخرين لعلي يطلبون، ويقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[1]، وآخرون يئسوا من الشفاعة، فراحوا يتمنون العودة للدنيا، لا لشيء إلا لأن يكونوا من المتمسكين بثقل الولاية، إذ كانوا يقولون: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]...

=وتولاك وأحب ذريتك وتولاهم من النار ووعدي الحق وأنا لا أخلف الميعاد، وإنما أمرت بعبدي هذا إلى النار لتشفعي فيه فأشفعك فيتبين لملائكتي وأنبيائي ورسلي وأهل الموقف موقعك مني ومكانك عندي فمن قرأت بين عينه مؤمنا أو محبا فخذي بيده وادخليه الجنة).

(١) الشعراء/ ١٠٠ ـ ١٠١

(٢) الشعراء/ ١٠٢





الفصل السابع

لقاء بعد فراق

لا أكاد اصدّق أننا خرجنا من جهنم، نعم، خرجنا منها وحال أكثرنا بأسوأ ما يكون، فهو كالحمم والفحم، لذا ذهبوا بنا إلى نهر يُقال له نهر الحياة، يُرش عليه من ماء الجنة، فألقينا أنفسنا فيه، حينها زالت عنا كل آثار النار والعذاب، وخرج الواحد منا كالبدر في ليلة تمامه، ولكن مكتوب على جباهنا جهنميون[1].

سرنا مع الملائكة بأمر فاطمة، حتى وصلت جنة الفردوس، فاستقبلتها هناك اثنتا عشرة ألف حوراء لم يستقبلن أحد قبلها ولا بعدها إكراماً لها، معهن خمسون ألف ملك على نجائب من ياقوت، أجنحتها من اللؤلؤ الرطب، وزمامها من الزبرجد، عليها رحائل من درّ، وعلى كل رحل وسادة من سندس... كل ذلك كان لأجل قدوم فاطمة!

ثم غادرتْنا بنت خاتم الأنبياء قبل الوصول لحدود الجنة، وغادر كل

---

(١) [عوالي اللئالي] لابن أبي جمهور الحسائي/ ج١/ ص١٢٣: (قال رسول الله ﷺ: إن أهل النار يموتون ولا يحيون، وإن الذين يخرجون منها وهم كالحمم والفحم، فيلقون على نهر يُقال له الحياة أو الحيوان، فيرش عليهم أهل الجنة من مائه فينبتون، ثم يدخلون الجنة وفيهم سيماء أهل النار، فيقال هؤلاء جهنميون، فيطلبون إلى الرحيم عز وجل إذهاب ذلك الإسم عنهم فيذهبه عنهم، فيزول عنهم الإسم، فيلحقون بأهل الجنة).



هذا الحشد العظيم معها، فعلمنا أن الإستقبال لم يكن لأجلنا، بل لأجلها، ولمنزلتها العظمى عند الله. غادرتنا بعد أن تركت في قلوبنا العشق لها، وكل واحد منا كان يشعر بالمنة العظيمة منها عليه.

تقدمنا أكثر نحو الجنان برفقة الملائكة ودلالتهم، وخلال مسيرنا هذا طرق سمعي تلاوة أحد المؤمنين ممن كانوا معي، فأصغيتُ له إذ كان يقول:

ـ ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[1].

مررنا في الطريق على عين ماء كبيرة توقفنا عندها، وأمرونا بالاغتسال من مائها، فقذفتُ بنفسي فيها، وطرتُ فرحاً حينما باشر مائها بدني بعد حر الوادي ووهج النار فيه، وأحسستُ بخفة الثقل عليَّ بعد طهارتي وتغير لون وجهي وحسنه، إذ ازداد بهجة وسروراً، حتى خرج في أحسن صورة وأتم نور، مستعداً لجوار الله تعالى في جنانه.

انطلقنا إلى العين الأخرى وإذا بمائها يضيء من تلألؤ الحواري التي كانت واقفة على جوانبها. تقدمتُ نحو إحداهن لأتناول الكأس الذي كانت تحمله، فقلتُ لها وقد أدهشني جمالها، وحسن هيئة الإناء الذي بيدها:

ـ من أنتِ؟

قالت، وكلامها يسيل بالعذوبة والأدب:

ـ أنا حورية خلقني الله من سعيك في الدنيا لتطهير نفسك رغبة في لقاء ربك.

---

(١) الحشر/ ٢٠



ـ ولكني لم أتمكن من تطهيرها كما ينبغي، وكنتُ في دنياي متحسرا على ذلك عندما أرى أولياء الله سبقوني في القرب والمقام.

تبسمتْ، ثم قالت:

ـ لا بأس عليك، فقد شفع لك شخص اسمه مؤمن، ورُفعتْ درجتك إلى درجات المتطهرين بعد أن قبل الله شفاعته فيك، وها هو كأس الطهارة اشربه لتنال مرتبتهم في القرب والمقام.

فرحتُ كثيراً عندما سمعتُ منها اسم صديقي مؤمن، وتمنيتُ اللقاء به لا لشيء إلا لأشكره على ذكره لي، ووفاءه بوعده معي، إذ قال لي ونحن في ساحة المحشر انه سوف لن ينساني، وانه سيشفع لي في المواطن التي يمكن له فيها ذلك. أنني لا أنسى فضله علي في دار الدنيا، إذ أخذ بيدي وزرع فيها بذرة الإيمان، وسقاها وهي في قلبي حتى نمت وكبرت فأصبحت جزءً من روحي التي بين جنبي.

شربتُ من كأس ماء العين الذي بيدها.. سبحان الله! ما أعذب هذا الشراب وألذه، وما أعظم أثره على نفسي، إذ لم أتذوق من قبل شراباً مثله، ولم أجد طعماً أفضل من طعمه، كما إني أحسستُ بعد تناوله بطهارة قلبي من كل رجس وغل وملكة لا تليق بمقام القرب من الله، فقلتُ لها:

ـ وهل كل من شرب من أيدي الحواري الواقفة على ضفاف هذه العين سينال ما نلته؟

تبسمت مرة أخرى، وقالت:

ـ هم على تفاوت كبير، وكل ذلك بحسب شدة وضعف سعيه إلى ربه.

وقفنا على مشارف أبواب الجنة مع زمر العابدين، ووفود المتقين،



ونظرتُ إليهم فرأيتُ كل واحد منهم مبيض وجهه، يسعى نوره بين يديه، يحمل كتابه بيمينه، موقناً برضا ربه...

ولم يطل وقوفنا كثيرا حتى أطلت علي إشراقة عملي الصالح بعد فراق طويل، سلّم علي وعانقني، ثم قال:

ـ ألم أقل لك يا سعيد سيأتي اليوم الذي أقودك فيه إلى الجنة، وها أنت على مشارف أبوابها.

انطلقنا نحو أبواب الجنان بعد أن استكملنا طهارة القلب والبدن، وجاء أمر المولى الجواد إلى خزّان الجنة من الملائكة أن افتحوا أبواب الجنان لأحبائي من عبادي. لم يتخلف أحد من الملائكة عن أمر الله، وأنّى لهم ذلك وهم ﴿...لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

امتلأ قلبي سروراً حينما سمعتُ حسن صرير أبواب الجنة، ولكني رفضتُ الدخول...! نعم، رفضتُ ذلك، وتأخرتُ عمن دخلها، فسألني الملائكة عن سبب تأخري فأخبرتهم أني لا أدخل الجنة حتى أشفع لأهل بيتي[2]. أريد الشفاعة لأمي المسكينة التي تركتها خلفي في عقبة صلة الرحم، ولا أعلم أين سارت بها أمواج الحساب. أريد أن أشفع لأختي هدى التي لا أنسى فضلها علي في دار الدنيا بعد رحلتي منها، هداها الله إلى الجنة إذ تكفلت بتربية ولدي يتيم الأبوين مرتضى حتى أصبح من المؤمنين المتخلقين بأخلاق الإسلام، والمدافعين عنه بالقلم واللسان.

---

(١) التحريم/ ٦

(٢) [بحار الأنوار] للعلامة المجلسي/ ج ٨/ ص ٣٨: (... ثم قال أبو جعفر عليه السلام: إن لرسول الله صلى الله عليه وآله الشفاعة في أمته، ولنا شفاعة في شيعتنا، ولشيعتنا شفاعة في أهاليهم...).



تقدم نحوي أحد الملائكة، ويبدو أنه رئيس مجموعته، فتكلم معي بلطف بعد أن بارك لي النجاة والفوز بالجنة ونعيمها، وقال:

ـ هل تريد الشفاعة في أهل بيتك؟

أجبته، وأعلمته برغبتي الشديدة في ذلك، فقال:

ـ إن مرتبتك لا تُجيز لك الشفاعة في جميع أهل بيتك، وإن البعض منهم من له من الذنوب ما لا تسمح له باستقبال شفاعتك فيه.

ـ أخبرني عن أي شخص منهم يمكنني الشفاعة له.

ـ يمكنك ذلك لأختك هدى فقط دون غيرها.

ـ آه، والآخرون، وأمي كيف السبيل لنجاتها؟

ـ إن أمك لا تزال محبوسة معذّبة في عقبة صلة الرحم، وأمامها عقبات عديدة لم تتجاوزها بعد.

نظرتُ لما حولي فما رأيتُ غير الملائكة، وقد أحاطوا بي من كل جانب يلتمسوني الدخول إلى الجنة مع أقراني، وراح أحدهم يصف لي القصور فيها، والحور التي أصبح شوقها عظيم لقدومي عليها، ولما رأوا إصراري على مطلبي قبل دخول جنتي، قال أحدهم إذن أدعو الله أن يشفعك في أختك.

ألقيتُ بنفسي ساجداً داعياً الله تعالى، باكياً، مستحضراً فضل الله العظيم علي بنجاتي من النار.

ناجيتُ ربي أن: (يا إلهي، يا من سلطان الآخرة بيده، يا من لا يشفع أحد في غيره إلا بأذنه، أسألك بحق الأنوار التي خلقتها وخلقت كل نور منها إلا ألحقت أختي هدى بالجنة).



لم أغادر موقعي، ولم أدخل جنتي، وكنتُ أنتظر قدومها بشوق عظيم، ولا أعلم لماذا تخلفت عني، وهي كما عرفتها كانت من المتقين، تُرى بأي عقبة تأخرت؟ وهل ستخرجها شفاعتي لها مما هي فيه الآن؟

طال انتظاري على أبواب الجنة حتى جائتني حورية منها، وهي في غاية الجمال، تلتمسني دخول الجنة، وتخبرني أن رفيقاتها بانتظاري. قلتُ لها ومن أنتُنَّ؟ قالت:

- كل واحدة منا هي صفة من صفاتك الحسنة التي أصبحت ملَكة عندك في الدنيا، قد أعددنا لك حفل استقبال وتبريك لفوزك بجنة الخلد.

توقفتْ عن الكلام قليلاً، ثم عادت لتقول:

الجميع بانتظارك يا سعيد، من خدم وجواري و..

قاطعتُ كلامها قائلاً لها:

- أشكركِ كثيراً مع رفيقاتك، ولكنني أنتظر قدوم أختي معي، لقد كانت الوحيدة من أهل بيتي تدرس معي معالم الدين، وتبحث عن حقيقة الوجود، وتسعى معي بكل طاقتها لخدمة الإسلام، وقبل رحلتي من الدنيا تعاهدنا في يوم الغدير أن لا يدخل أحدنا أبواب الجنة حتى يشفع للآخر إن تخلف عنه(١)، وأنا لا أريد أن أخلف عهدي معها.

---

(١) مستدرك الوسائل/ ج ٦/ ص ٢٧٨: قال في ضمن أعمال هذا اليوم المبارك (يوم الغدير): وينبغي عقد الأخوة في هذا اليوم مع الإخوان بأن يضع يده اليمنى على يمنى أخيه المؤمن ويقول: واخيتك في الله وصافيتك في الله وصافحتك في الله، وعاهدت الله وملائكته وكتبه ورسله وأنبياءه والأئمة المعصومين عليهم السلام على أني إن كنت من أهل الجنة والشفاعة وأذن لي بأن أدخل الجنة، لا أدخلها إلا وأنت معي. فيقول الأخ المؤمن: قبلتُ، فيقول: أسقطتُ عنك جميع حقوق الأخوة ما خلا الشفاعة، والدعاء، والزيارة.



لم تنطق بشيء رداً على كلامي، إذ يبدو أنها قبلت بحديثي ووفائي بعهدي، لذا استأذنتْ العودة إلى رفيقاتها، فأذنتُ لها.

طال الانتظار مرة أخرى حتى جائتني البشرى...

نعم، قد وصلني خبر قدومها وأنها في الطريق إلينا، إنها في المراحل الأخيرة من التطهير.

لم تزل عيني تراقب الطريق، وتتمعن في كل قادم إلينا حتى أتت...

نعم، قد جاءت بنفسها، وعرفتها من أول نظرة رغم تغيّر صورتها، وشدة بياض وجهها، ورغم اشراقات نورها الذي يسعى بين يديها، ورغم جمالها الذي فاق جمال الحور الساحر. نعم، رغم كل ذلك لكني عرفتها، وهي مازالت تحمل عين ملامح هدى التي كانت في الدنيا.

عانقتها بعد فراق آلاف من السنين، وأول كلمة قلتُ لها، ودموع الفرح قد اختلطت بدموعها:

ـ أوفيتُ بعهدي معكِ يا هدى؟

رفعت رأسها، وأجابت وهي تمسح الدمع المتلألأ من على خديها:

ـ نعم، قد وفيتَ يا سعيد، كنتَ وفياً للعهد في الدنيا فأمكنك الله من وفاء عهدك معي في الآخرة. كنا ندعو الله سوية أن يجمعنا في الجنة وقد استجاب لنا، فنعم الرب ربنا.

علم الجميع بقدومها، وفتحت الجنة أبوابها، فهاج نسيم طيبها يحمل معه رائحة مسكها الأذفر، وزعفرانها المونع. اقتربنا أكثر وأكثر ورأينا حشود الملائكة المستبشرة بقدومنا قد وقفت على باب الجنة، وعند المرور بهم نادى أولهم بصوت جميل: ﴿...سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا



﴿خَٰلِدِينَ﴾[1]، وتقدمنا أكثر، فنادى آخرهم مشيرا إلى الجنة ونعيمها: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

وبدأ الحفل بموسيقى التسبيح، وتعالت نغمات التهليل، فاختلط معها لحن تكبير الحاضرين، وحمد الحامدين، لتكوّن بذلك أنشودة الخلود أن: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر).

نظرتُ إلى هدى، فرأيتها مبهورة بما ترى، فرحة بالنعيم الذي ينتظرها، والملائكة التي ترافقها، والجواري التي تخدمها، والطيور التي تغرّد بأغانيها فرحاً بقدومي وقدومها، حينها سمعتها تقول: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء[3].

انتهى الحفل فذهبنا نخطو في مفترق الجنان، في رياض الزعفران، وبين كثبان المسك التي تفوح منها رائحة وأي رائحة! يُقال لها مسك، ولكن أين هي ومسك عالم الدنيا!

لم يشغلني ذلك النعيم عن والدتي، فالتفتُ إلى هدى، وقلتُ لها:

ـ إن أمي بحاجة إلى شفاعتنا، وقد تركتها في عقبة صلة الرحم تتلوى ألما، وتحترق حسرةً، ولا أظن أنها خرجت منها حتى الآن، كما إني طلبتُ من الملائكة الشفاعة لها، ولكنهم أخبروني بعدم تمكني من ذلك لأن درجتي ضعيفة لا تسمح لي بالشفاعة لأمثالها.

أجابتني هدى، وقالت:

---

(١) الزمر/ ٧٣

(٢) الزخرف/ ٧٢

(٣) الزمر/ ٧٤: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.



ـ صحيح ما قالوا، فأمثالنا في المقام لا يستطيع ذلك، لذا علينا التوسل بأصحاب المقامات العالية.

ـ وهل تعنين أحداً في كلامك يا هدى؟

ـ نعم، إن والدتي كانت دائماً تطلب الشفاعة في دنياها من الحسين سلام الله عليه، أجل، كانت تبكي كثيراً عندما كنتُ أقرأ لها زيارة عاشوراء، وخصوصاً عند المقطع الذي يقول: (**اللهم ارزقني شفاعة الحسين يوم الورود، وثبت لي قدم صدق عندك مع الحسين وأصحاب الحسين الذين بذلوا مهجهم دون الحسين عليه السلام**)[1]، ونحن الآن في يوم الورود على الله، أليس كذلك يا سعيد؟

ـ آه، صحيح جدا ما قلتيه، ودليل صدق نيتها بكائها. كما إنني علمتُ منها مرات عديدة أن قصدها من زيارة الحسين، وإقامة مجالس العزاء عليه، إنما كان للقربى من الله لا لشيء آخر، وكانت ترفض الافتراءات الدخيلة على نهضته وعلى أصحابه في مجالسها التي تقيمها.

أطرقتُ قليلاً، ثم أردفتُ قائلاً لها:

ـ عزيزتي هدى، اتركي هذا الأمر لي واذهبي إلى جنتك التي أعدها الله لك، اذهبي فكل ما عملتِ في الدنيا من خير ينتظركِ الآن وقد تجسم بشكل قصور جذّابة، وبساتين خلاّبة، وخدم من الجواري والولدان المخلدين، الذين وصفهم الله تعالى في قرآنه كأنهم لؤلؤ مكنون. عزيزتي: إني مسرور جداً لكِ، وسوف أزوركِ عن قريب في جنتك، ولعله مع والدتنا إن شاء الله لنا ذلك.

---

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي/ مقطع من زيارة عاشوراء



فارقتها بعد أن اجتمعت وصيفاتها حولها ليقودنّها إلى جنتها، أما أنا فبقيتُ عند مفترق الجنان، وكان كل شيء يخطر على قلبي، وتشتهيه نفسي، يأتيني من فوره قبل أن أطلبه. سألتُ عملي الصالح عن الطريق إلى طلب شفاعة الحسين لوالدتي، فذهب سريعاً ثم عاد ومعه ملك في غاية الجمال، وقال لي اسأله بما تشاء، فسألته:

ـ كيف الطريق إلى نيل شفاعة الحسين لوالدتي، أريدها أن تلحق بنا.

أطرق قليلاً، ثم قال:

ـ هل تعني الحسين ابن فاطمة بنت خاتم الأنبياء؟

ـ نعم.

نظر الملك لما حوله ثم توجه لي، وقال:

ـ هل ترى اشراقات هذه الجنان؟ وهل ترى النور الذي يسطع من الحور والجواري والولدان؟ وهل ترى البساتين الخضرة وثمارها الجذابة؟ وهل تشم روائح الورود العطرة؟ وهل تسمع أغاريد طيور الجنة ونغماتها؟ وهل تسمع صوت جريان أنهارها؟

توقف عن الكلام، وتعجبتُ من أسئلته وماذا يقصد منها، فأجبته:

ـ نعم أسمع وأرى.

استأنف كلامه، وقال:

ـ إن كل ما ذكرته لك قد خلقه الله تعالى من نور الحسين، وجماله من جمال الحسين[1]، فالجنان أشرقت بأشراقته، وأضاءت من ضياءه.

---

(١) [مدينة المعاجز] للسيد هاشم البحراني/ ج٣/ ص٤١٨: (... فقال ﷺ:... وفتق نور الحسين فخلق منه الجنان والحور العين، والحسين أفضل منهما).



سكت قليلا ليرى أثر كلامه، ولكنه فوجيء عندما قلتُ له:

ـ إني أعلم ذلك كله، إذ أخبرنا به نبينا محمد ﷺ، وقال لنا أيضاً أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، كما إني أعلم أن للحسين درجات في الجنة ما نالها إلا بشهادته.

أطرق الملك قليلاً، ثم قال:

ـ إذن أنت تعلم ذلك، وتعلم بعظم مقامه وعلو درجته، ولهذا تطلب الشفاعة منه.

ـ نعم، إن والدتي من الصعب إخراجها من مأزقها الذي وقعت فيه إلا بشفاعة أصحاب المقامات العالية عند الله، وبما أنها كانت تطلب شفاعة الحسين وهي في الدنيا، وكانت تطلب القربى من الله بزيارته والبكاء عليه، فلا أظنه يتركها في الآخرة وهي بأشد الحاجة إليه، ولا أظن الله يرفض شفاعته فيها.

أحسستُ بإضاءة نور أمل لنجاة والدتي بعد جريان الحديث بيني وبين الملك، مما دعاني إلى التقدم أكثر في مهمتي، والإصرار عليها، لذا سألتُه عن كيفية الوصول إلى الحسين، والتحدث معه، فقال:

ـ إن قوانين الآخرة ليست كقوانين عالم الدنيا الذي كان مقيداً بالزمان والمكان، فلا يحتاج أن تذهب إليه حتى تتحدث معه، لقد كنتَ تزوره في الدنيا من على بُعد في المكان منه، وتعتقد أنه يسمع كلامك، ويرد جواب سلامك، فكيف وأنت الآن في عالم الآخرة؟

لم يكد حديثنا ينتهي حتى قدم علينا ملك ساطع نوره، عظيم بهائه وجماله، اقترب منا، ويبدو منه أنه قادم من الجنان العالية، إذ كان أعلى



درجة من بقية أصناف الملائكة. ومما دل على ذلك قيام جميع الملائكة من حولي، وأدائهم الاحترام إليه. سلّم علينا، ثم توجه نحوي، وقال:

- إن الحسين سيد شباب جنان الخلد يبلغك السلام مع كل إخوانك المؤمنين الذين وردوا حديثاً إلى جنانهم، ويريد زيارتكم عن قريب، فهل ترغب في ذلك؟

طرتُ فرحاً وسروراً حينما علمتُ أن مولاي يرغب بزيارتنا، ولم أكد أصدق ذلك لولا علمي بأن عالم القيامة هو عالم الحقيقة المطلقة، وليس فيه نوم ولا حلم ولا خيال، لذا جمعتُ أمري، وقلتُ له:

- كيف لا أرغب في لقاء مولاي الحسين، وقد كنتُ أذرف الدموع شوقاً لزيارة قبره، فكيف والآن يدعوني للقاء شخصه. أخبره أني سأكون أول من يستقبله، وأخبره أن سعادتي ليس بجنتي التي سوف أدخلها، ولا بالنعيم الذي فيها، ولا بالأنهار التي تجري من تحتها، بل إن سعادتي بلقائه، والنظر إلى جمال وجهه.

كان الملك يمعن النظر في وجهي، ويصغي لقولي، وعندما توقفتُ عن الكلام، قال:

- إذن اذهب وادخل جنتك، وحشّد ما لديك فيها لاستقبال مولاك...





الفصل الثامن

على شواطئ الكوثر

أرسلتُ عملي الصالح لاستطلاع الأوضاع، وتهيئة أمر دخول جنتي، فمكث غير بعيد ثم جاءني مع جمع عظيم من الملائكة، وقال:

ـ إن كل شيء حاضر ومهيأ، وآلاف من الملائكة والخدم والجواري والحور بانتظار قدومك إلى مملكتك، وقد طلب مني كبارهم المجيء معي ليكونوا من أوائل المستقبلين، ويرافقوك في أول دخولك.

قلتُ له مستعظماً قوله:

ـ أحقا ما تقول؟ ومن أكون أنا حتى يعطيني ربي كل هذه الكرامة من عنده؟!

صمت قليلا، ثم قال:

ـ ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[1]، وأنت من المتقين يا سعيد.

ودخلتُ جنتي...

وأي جنة ساحرة! وأين هي من جنات الدنيا، بل وجنات عالم البرزخ! دخلتُ ويرافقني على يميني ملك جميل المنظر، حسن الخلقة،

(١) مريم/ ٦٣



ذو هيبة عظيمة، يأتمر بإمرته كل من تقدم أمامنا ومن تأخر عنا، فسألته من يكون، فأجاب:

- إني مسؤول مملكة جنانك، خلقني الله تعالى لأكون تحت إمرتك مع كل هؤلاء الذين تراهم، والذين لم يأتوا معنا، وهم بأشد الشوق إليك، ويفتخرون بالقيام بخدمتك كلٌّ حسب وظيفته.

تقدمنا في المسير داخل الجنان، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، حتى وصلنا إلى أول قصر من قصورها، نظرتُ إليه فرأيته من فضة، مشرقا بالدر والياقوت، قد وقف على أبوابه الملائكة وحور العين الذين أظهروا اشد الترحيب بنا، وطلبوا منا النزول عندهم، حتى هممتُ بذلك، ولكن الملك الذي كان يرافقني أشار إلي وقال:

- يا سعيد، إن هذا القصر مُلكك، ولكَ أيضاً ما هو أعظم منه أمامنا، فلنسري إليه.

قبلتُ كلامه، وانطلقنا حتى أتينا إلى قصر من ذهب مرصّع بالدر والياقوت، فهممتُ بالنزول إليه، ولكن الملك أخبرني أيضاً بأنه مُلكي، وهناك ما هو أعظم منه[1].

تابعنا مسيرنا ومررنا بقصور عديدة أخرى، حتى وصلنا إلى مشارف

---

(١) [ألف حديث في المؤمن] للشيخ هادي النجفي/ ص ٣٠٤ . ٣٠٦: (... فيقلن: مرحبا مرحبا يا ولي الله انزل بنا، فيهم أن ينزل بهن فتقول له الملائكة: سر يا ولي الله فإن هذا لك وغيره. قال: ثم ينتهي إلى قصر مكلل بالدر والياقوت فيهم أن ينزل بقصره فتقول له الملائكة: سر يا ولي الله فإن هذا لك وغيره... فيأتي قصرا يرى باطنه من ظاهره وظاهره من باطنه، لبنة من فضة ولبنة من ذهب ولبنة من ياقوت ولبنة در، ملاطه المسك، قد شرف بشرف من نور يتلألأ، ويرى الرجل وجهه في الحائط...).



قصر في غاية من الجمال، يُرى باطنه من ظاهره، وظاهره من باطنه، ليس له حد في سعته، ولا نهاية في علوه، وما رأيتُ مثيلاً له في جماله وعظمته. عجبتُ كثيراً من ألوانه المشعة وقد مزجت بصورة رائعة خلابة، لتعطي منظراً ساحراً، وشعاعاً منسجماً مع ما حوله من الحدائق الخضراء، والورود ذات الألوان البهية.

لم يتركني الملك في حيرتي حينما رآني أتمعن في لبنة جدرانه، إذ قال:

ـ إن مواده من الذهب والفضة، والدر والياقوت، ذات الألوان المتعددة التي لم تكن لديكم في عالم الدنيا.

ـ آه، صحيح، إني أرى ألوانا لم تكن لدينا في دار الدنيا، بل لم تكن تخطر من قبل على فكر بشر!

تخلف عنا الحشد العظيم، ودخلتُ أنا وعملي الصالح والملك إلى حديقة القصر. تبسم عملي الصالح بعد أن شاهد القصر، وتمعن فيه، ثم قال:

ـ يا سعيد، لقد كنتَ مهندساً في الدنيا، وذو خبرة عالية في تصميم الأبنية، فما رأيك بهذا القصر؟

توجهتُ إليه مبتسماً، ثم أجبته:

ـ لو اجتمع عظماء مهندسي الدنيا على بناء غرفة واحدة من غرفه، ما تمكنوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

تجولنا قليلا في حديقة القصر، وكانت الورود تحيينا، وتغيّر من ألوانها بين الحين والآخر، وتطلق أنغاماً موسيقية رائعة بحركة إزهارها ورنين أوراقها، يطرب لها سامعها. توقفتُ عند احدها بعد أن رأيتها مسرورة جداً بقدومنا، وقبل أن انطق بكلمة معها، قالت:



ـ أنا وردة خلقني الله قبل آلاف من السنين، وكنتَ أنتَ السبب في خلقي، فلك المنة علي أن أخرجتني إلى عالم الوجود!

سألتها مستغرباً :

ـ وكيف كنتُ أنا سبب وجودكِ؟

قالت، وكأنها واثقة من كلامها :

ـ نعم أنت قضيتَ حقبة من الزمن في عالم الدنيا قبل آلاف من السنين، وصنعتَ بعملك كل ما تراه أمامك الآن، وهذا القصر العظيم أنت بنيته بعملك لبنة بعد لبنة منذ ذلك الوقت، وهذه الورود والأشجار والأنهار أيضاً، وقد مضت آلاف من السنين ونحن ننتظر قدومك علينا، فكيف لا نسعد الآن، وقد أتيت بين أحضاننا، وكيف لا نخدمك وأنت سبب وجودنا.

توجهنا نحو شجرة لفتت نظري من بين الأشجار، وتوقفتُ عندها، فبهرني جمالها وظلها الممدود الذي استظل به جميع سكان القصر وحدائقه وما فيها، فكان المناخ ذا عذوبة بالغة، ونور معتدل، لا تُرى فيه شمس ولا زمهرير. التفتُ نحو الملك، وقلتُ له :

ـ ما اسم هذه الشجرة؟

قال :

ـ إنها غصن من أغصان شجرة طوبى التي يمتد جناح ظلها على الجنان كلها. واصلها من رضوان، وماءها من تسنيم، وما في الجنة من قصر ولا دار إلا وفيه فرع منها.

قلتُ مندهشا :

ـ سبحان الله! إذا كان هذا غصن من أغصانها فكيف يكون أصلها؟!

قال :



ـ إن أصل شجرة طوبى في دار خاتم الأنبياء ووصيه علي[1].

ـ وهل دارهما واحدة؟

ـ نعم إن منزل خاتم الأنبياء وعلي في مكان واحد من جنة عدن، عند قبة الرضوان، وهو منزل في غاية من العلو في الرتبة والمقام، والقرب من الله، وما قصرك هذا وجميع ملكك في مملكتك إلا كذرّة من ذرات تراب جنة الخاتم وأهل بيته!

توقف الملك قليلاً، ثم قال:

ـ من الأفضل أن نترك التجول في حدائق القصر إلى وقت آخر، وندخل الآن إلى غرفه، فإن زوجتك علمت بقدومك، وقد بلغ شوقها إليك أقصاه، كما إنها أبت أن تخرج من خيمتها حتى تأتي أنت عليها، وتكون أول من يراها!

اشتد شوقي إليها، وعشقي لها قبل رؤيتها، وذلك لعظيم إخلاصها وطويل انتظارها لي، ولعلها كانت ترتقب قدومي عليها منذ آلاف من السنين.

دخلنا القصر، فكان على شكل غرف من فوقها غرف مبنية بالدر والياقوت والزبرجد، وسقوفها من الذهب محبوكة بالفضة، ولصفاء

(١) [شجرة طوبى] للشيخ محمد مهدي الحائري /ج ١/ ص١٨٧: (وقال ﷺ: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، ما في الجنة دار ولا قصر ولا حجرة ولا بيت إلا وفيه غصن من تلك الشجرة، وأن أصلها في داري. وقال يوماً آخر: وأصلها في دار علي بن أبي طالب، فقام عمر وقال: يا رسول الله أوليس حدثتنا عن هذا وقلت أصلها في داري ثم حدثت وتقول أصلها في دار علي ﷺ؟ فرفع النبي رأسه وقال: يا عمر أوَ ما علمت إن داري ودار علي واحد، وحجري وحجر علي واحد، وبيتي وبيت علي واحد، ودرجتي ودرجة علي واحدة، وستري وستر علي واحد).



جدرانها وأرضها، كنتُ أرى صورتي فيها، ولكثرة أبوابها لم أحصها، وكان على كل باب من أبوابها ملك موكل به[1].

كانت في الغرف فرش مرفوعة بعضها فوق بعض، بطائنها من استبرق، وظاهرها من الحرير والديباج بألوان مختلفة، تفوح منها رائحة المسك والعنبر، وهي أخف من الريش وألين من الحرير.

تحركنا نحو غرفة في أعالي القصر كانت تشرف على كل حدائقه. سألتُ الملك عنها، فقال:

ـ إنها غرفتك، وستدخلها أنت دوننا، ولها من الميزات ما ليس لغيرها.

دخلتُ غرفتي بسم الله الرحمن الرحيم...

سبحان الله الذي خلقني وخلقها! إنها جنة صغرى داخل مملكة كبرى، لها من الجمال والكمال ما ليس لغيرها من الغرف الأخرى. تجري من تحتها الأنهار من غير أخدود ولا شقوق. تحيرتُ في منابعها ومصباتها، فلا يُعلم من أين تأتي وإلى أين تسير! نهر من ماء غير آسن، ونهر من لبن لم يتغير طعمه، ونهر من خمر لذة للشاربين، ونهر من عسل مصفّى، فقلتُ سبحان الله والحمد لله، وهذا أيضاً مما وعدني الله به إذ

(١) [بحار الأنوار] للعلامة المجلسي/ ج ٨/ ص ١٥٨: (... فقال علي ﷺ: يا رسول الله أخبرنا عن قول الله عز وجل: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ بماذا بنيت يا رسول الله؟ فقال: يا علي تلك غرف بناها الله عز وجل لأوليائه بالدر والياقوت والزبرجد، سقوفها الذهب محبوكة بالفضة، لكل غرفة منها ألف باب من الذهب، على كل باب منها ملك موكل به، فيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير والديباج بألوان مختلفة، وحشوها المسك والكافور والعنبر...).



قـــــال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[1].

كان في الغرفة أسرة متعددة من الدر والياقوت، فجلستُ على أحدها فاهتز فرِحاً مسروراً، وقال مفاخراً بقية الأسرة: هنيئاً لي فقد جلس علَي ولي الله!

تبسمتُ من كلامه، وقمتُ لاستطلاع ما في الغرفة ولكني تذكرتُ زوجتي التي قال الملك عنها أنها تنتظرني، فأين هي؟

هممتُ بمناداة الملك الحاجب على باب الغرفة الأكبر، وإذا به ينفتح ويدخل النور معه، ليزيد النور على النور. سألتُ الحاجب عن مصدره، فقال:

ـ إن الملائكة أخبرت زوجتك الحوراء بدخولك القصر، فاستبشرت وتبسمت مسرورة بذلك، وهذا شعاع تبسمها!

قلتُ:

ـ سبحان الله! وأين هي الآن؟

ـ مع وصيفاتها وجواريها، وسوف تأتيك عن قريب بعد أن يكتمل استعدادها للقائك.

زاد شوقي للقائها، ودخلتُ الغرفة منتظراً قدومها. لم يمضِ وقت طويل حتى أتاني الحاجب يخبرني بأن وصيفات زوجتي يردن الدخول علي، فأذنتُ لهن.

دخلن ونظرتُ لهن، فإذا بهن من الجمال ما لا يوصف، ومن النور ما

---

(١) الزمر/ ٢٠



لا يتحمله أهل الدنيا لو رأوا ذرة من شعاعه. جلسن وتكلمن بكلام عذب يطلبن فيه الأذن لزوجتي بالخروج من خيمتها والقدوم علي!

أعطيتهن الإذن بذلك، وقلتُ في نفسي سبحان الله! إذا كانت وصيفات زوجتي هكذا، فكيف هي؟! وكيف لا أعطي الإذن بقدومها وأنا أكاد أذوب شوقاً لرؤيتها؟!

ما أن خرجن حتى أحسستُ بحدوث ضجة في القصر، وما هو إلا وقت قصير، وإذا بالذي شغل فكري، وعظم شوقي إليه، يقدم بنفسه..

نعم، أقبلتْ وحولها وصيفاتها، وآلاف الخدم والجواري من خلفها، والملائكة تحفها من كل جانب، وتزفها بأعذب النغمات، وأجمل الأنشودات.

وقفتُ أنظر إليها من داخل الغرفة وقد طغى نورها على من حولها. لم أتمكن من رؤيتها حتى تقدمتْ وحدها، ودخلتْ تاركة ورائها كل من كان معها. دخلتْ الغرفة بنفسها، وتقدمتْ خطوات فيها...

كنتُ أنظر إليها، فانشغلتُ بجمالها الساحر عن الكلام معها، وقلتُ سبحان ربي حينما قال: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1]، ويبدو أنها أيضاً بُهرتْ بجمال وجهي، وشعاع نوري، فراحت تنظر لي نظرة العاشق المشتاق، ليسكن طول حنينها، وعظيم شوقها، ثم تبسمتْ..

نعم، تبسمتْ فغمرتْ الغرفة بضياء تبسمها وطيب ريحها، وبقيتُ أنا كالمبهوت الذاهل من عظيم ما أرى!

---

(١) السجدة/ ١٧



كان جمالها وكمالها يسلب الألباب، ويحير العقول، وعيونها واسعة يتلألأ وسط سوادها بريق بياضٍ كاللؤلؤ، ترتدي ثياباً شفافة براقة، تسحر الأبصار بألوانها.

كان صدرها مملوءاً بقلائد اللؤلؤ اللّماع، وأيديها بالحلي الذهبية البراقة التي تعطي ألواناً عجيبة بانعكاساتها، وألحاناً مطربة بحركاتها. أما عطرها فكان يفوح برائحة طيبة كرائحة الورد الأحمر، وعطر ثيابها يتغير بين الحين والآخر مع تغير ألوانها، ليعطي انسجاماً رائعاً مع طرقات الحلي وألحانها.

اقتربتُ منها، وقلتُ لها:

ـ من أنتِ؟

قالت بصوتها العذب:

ـ أنا إحدى زوجاتك في الجنة، وأنا من الخالدات اللاّتي لا يمتن، والراضيات اللاّتي لا يسخطن.

ـ وهل أنتِ من نساء الدنيا، أم من حور الجنان؟

ـ أنا من حور العين التي قال الله عنها: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾[1]، وأنا من اللواتي قال الله عنها: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾[2]، وأنا من اللواتي خلقهن الله من تراب الجنة، وعطرهن من عطرها.

---

(١) الرحمن/ ٧٢

(٢) الواقعة/ ٣٥ ـ ٣٧



استأنستُ كثيراً بكلامها، وطربتُ لحديثها، وما أحببت سكوتها، فسألتها:

- ولماذا يُطلق عليكن الحور العين؟

- لتحيّر العقول في جمالنا.

- ولماذا يُطلق عليكن عُرُبا أترابا؟

- لأننا نحن الوالهات، العاشقات لأزواجنا(١).

تمعنتُ في صفحة وجهها المشرق، فكان كاللؤلؤ المكنون في اشراقته، وكالياقوت في صفائه، فتحيّر عقلي من جمالها وكمال خَلقها، فقلتُ لها:

- لو كنتُ في نشأة الدنيا لما طقتُ النظر إليكِ لحظة واحدة لعظيم جمالك، واشراقة وجهكِ(٢)، بل لو أتيتِ أنتِ إلى عالم الدنيا لطغى نوركِ على نور شمسها، كما يطغى نور الشمس على قمرها فيمحوه، لا بل لو أن ثوباً من ثيابكِ هذه أُتي به على أهل الدنيا لانبهروا جميعا منه، ولأغمي عليهم وما تحملوا رؤيته، ولا أطاقوا النظر إليه، فمِن أين أتاكِ كل ذلك؟

كانت تستمع لكلامي، وتأنس بأسئلتي منها، وتنظر لي بنظرات العاشق لمعشوقه، وحينما توقفتُ عن كلامي منتظراً جوابها، قالت:

---

(١) [تفسير الميزان] للسيد الطباطبائي/ ج ١٩/ ص ١٢٤: (وقوله: " عربا أترابا " العرب جمع عروب وهي المتحننة إلى زوجها أو الغنجة أو العاشقة لزوجها، والأتراب جمع ترب بالكسر فالسكون بمعنى المثل أي إنهن أمثال أو أمثال في السن لأزواجهن).

(٢) [وسائل الشيعة] للحر العاملي/ ج٦/ ص٤٦٦: (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لو أن حوراء من حور الجنة أشرفت على أهل الدنيا وأبدت ذؤابة من ذوائبها لأفتن بها أهل الدنيا، وإن المصلي ليصلي فإن لم يسأل ربه أن يزوجه من الحور العين قلن ما أزهد هذا فينا).



ـ إن كل ما تراه من جمال وكمال عندي، أنتَ وهبته لي.

ـ وكيف ذلك؟

ـ إن الله تعالى خلقني منذ آلاف السنين، يوم كنتَ أنت في دار الدنيا تقضي عمرك فيه. خلقني الله من امتناعك عن النظر إلى ما حرم الله عليك من نساء الدنيا امتثالاً لأمره، ورغبة في ثوابه، على الرغم من نزغات الشيطان إليك، ووساوسه عليك. في أول خلقي لم أكن بهذه الدرجة من الجمال والكمال الذي تراه الآن، ولكن كلما امتنعتَ عن النظر المحرّم، وكلما دمعتْ عيناكَ في الأسحار من خشية الله، زادني ربي جمالاً فوق جمالي، ونوراً فوق نوري، فلك الفضل عليَّ أن كنتَ السبب في خروجي من العدم إلى عالم الوجود، ولك المنة علي أن جعلتني بتلك الدرجة الرفيعة، والمرتبة العالية، حتى أن آلاف من الملائكة تخدمني، والوصيفات ترافقني.

سكتتْ قليلا، وما علّقتُ على كلامها منتظراً بقية حديثها، فأردفتْ قائلة:

ـ عندما كنتَ تعبد الله وتذكره في الأسحار، كنتُ متعطشة إليك، والهة بك، وكلما كنتَ تدعو الله وتقول: ومن الحور العين فزوجني، كنتُ أقول سبعين مرة: يا رب عجل وصالنا.

توقفتْ عن الكلام تنتظر سؤالا آخر مني، فقلتُ لها:

ـ وهذا العطر الذي يفوح منك، أي عطر هو؟

ـ إنه عطر الورد الأحمر في الجنة، وما رائحة الورد الأحمر الذي كنتَ تحبه في الدنيا إلا قطرة من خزانة جنة الآخرة.

أظهرتُ لها بالغ الترحيب، وأجلستها في مكان مرتفع من الغرفة لتتكأ



على إحدى الأرائك المطلة على حدائق القصر، واتكأتُ أنا على أريكة تقابلها.

دار حديث العشق بيننا، وتبادلنا عبارات الشوق والحنين، ورحنا نشاهد المناظر الخلابة، والحدائق الجذابة ذات الأشجار المتشابكة، والأزهار المتناسقة في ألوانها، المتفاوتة في عطرها، وقد غُرست فوق كثبان المسك والزعفران، وكم تكون رائعة عندما تشقها الأنهار العذبة الصافية في مياهها..

التفتُ إلى زوجتي الحوراء، فقرأتُ الابتسامة والسرور على صفحة وجهها، وقلتُ لها:

ـ إن جلوسنا هذا مصداقٌ لقول ربي: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[1].

أجل جلسنا نشاهد الأنهار بوضوح، إنها أربعة أنهار تجري، طينها مسك أذفر، وحصاها الدر والياقوت، أولها نهر من ماء صاف لا كدورة فيه، ونهر آخر من لبن أشد بياضا من الثلج، وألين من الزبد، وثالث من خمر يلتذ برائحته كل من يقترب منه، فكيف بالذي يتناوله، ثم الرابع نهر من عسل مصفّى[2].

شعرتُ برغبة لتناول شيء من تلك الأنهار وثمار الأشجار المطلة عليها، ولحوم الطيور السائحة فوقها، وهممتُ بمفاتحة الحوراء بذلك، وقبل أن أتفوه بكلمة معها دخل علينا الملك الحاجب فسلّم، وقال:

---

(١) يس/ ٥٦

(٢) محمد/ ١٥: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.



ـ إن ما اشتهيته حاضر، فهل تأذن بإدخاله إليكما؟

نظرتُ إليه مندهشاً مستغرباً ما يحدث، ولكني لم أظهر له ذلك فتبسمتُ وأذنتُ له. دخل علينا ملائكة في غاية الجمال لم أرهم من قبل هذا، فقالوا جميعا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[1]، ورددنا عليهم السلام.

كان أحدهم يحمل طبقين في كل طبق أربعة أكواب، وآخر يحمل طبق فيه أنواع الفاكهة، وآخر يحمل طبق فيه لحم طير مشوي. سألتهم عمن يكونون، فأجاب أحدهم:

ـ نحن خدام الجنة من الولدان المخلّدين.

التفتُ إلى زوجتي الحوراء وقلتُ لها: ما أصدق وعد ربنا حينما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾[2].

وضعوا كل ما أتوا به في أماكنه وانصرفوا، فأحسست بعظيم نعم الله التي أعطانيها، وجسيم آلائه التي غمرني بها.. ماذا فعلتُ خلال عمري القصير حتى أجازى بكل هذا، وأعطى كل هذه الكرامة من عنده؟

ناديتُ ربي نداء العبد لمعبوده، والفقير إلى المُنعم عليه: يا ربي (**تقدست أسمائك، وعظمت آلائك، فأي نعمك يا إلهي أحصي عدداً وذكراً، أم اي عطاياك أقوم بها شكراً، وهي يا رب أكثر من أن يحصيها العادّون، أو يبلغ علماً بها الحافظون**)[3].

---

(١) الرعد/ ٢٤

(٢) الواقعة/ ١٧ ـ ٢١

(٣) مقتطف من دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة.



جرت على خدَي دموع المقصّر المعتذر من ربه مقابل عظيم نعمه، وتنحيتُ جانباً من الغرفة، ودعوتُ ربي متذللاً خاشعاً: يا إلهي (**لو حاولتُ واجتهدتُ مدى الأعصار والأحقاب لو عُمّرتها، أن أؤدي شُكر واحدةٍ من أنعمك ما استطعتُ ذلك، إلا بمنك الموجب عليَّ به شكرك**)[1].

استغربتْ الحوراء حالي بعد أن تركتها مع ما لذ وطاب من الطعام والشراب. لحقتني وجلستْ جنبي تمسح الدموع عني بيديها الناعمتين لتهب لي الطمأنينة والسكون، ثم قالت:

ـ عزيزي سعيد، ليس أنت الوحيد الذي يشعر بتقصيره أمام خالقه، إن الله تعالى متفضل على كل مخلوقاته، وما من أحد له المنة عليه في طاعته، ولو حاسب الله الجن والإنس بعدله ما نجا منهم أحد قط. أطاعوه بالجوارح التي وهبها لهم، وذكروه باللسان الذي منحه إليهم، وأعطوا الصدقة والخمس والزكاة من المال الذي وكّلهم عليه، فأي منة للخلق على الله؟ لكنه مع ذلك يهب من أطاعه كل هذه الجنان والنعيم!

ـ صحيح يا عزيزتي، ولكن ألا يستحق ربنا العشق من عباده؟ وهل يغفل العاشق عن معشوقه؟ أويهدأ الحبيب عند فراق محبوبه؟ وأنا أشعر الآن بالتقصير أمام ربي أن عبدته وأطعته في الدنيا خوفاً من ناره وطمعاً في جنته، لا حباً له وشكراً له على أنعمه، وأنا لا أهدأ الآن حتى يغشيني ربي برضاه.

وعاد الدمع يجري لأناجي ربي هذه المرة بلسان العاشق له: (**إلهي لو قرنتني بالأصفاد، ومنعتني سيبك من بين الأشهاد، ودللتَ على فضايحي عيون العباد، وأمرتَ بي إلى النار، وحلتَ بيني وبين الأبرار، ما قطعتُ**

---

(١) مقتطف من دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة.



رجائي منك.. ولا خرج حبك من قلبي)[1]، فكيف وقد أدخلتني الآن جنتك، وأغرقتني في نعمك التي لا تفنى ولا تزول، أريد يا إلهي أن يعلم سكان سماواتك وأرضك أني أحبّك.

لم يمضِ وقت طويل حتى جاءني رسول من العلي الأعلى، فدخل علينا بعد الاستئذان، وقال:

- جئتك من العلي الأعلى لأبلّغك السلام، وأنقل لك المعنى الذي أمرني بنقله إليك: (عبدي: إني أحب خلقي منذ خلقتهم، وأردتُ لهم الجنة وعرّفتها لهم[2]، وأنرتُ لهم طريقها عبر أنبيائي ورسلي، وضاعفتُ لهم أعمالهم، فجعلتُ الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها[3]، كي تثقل موازينهم، ورأيتُ منهم التثاقل في طاعتي فأوجدتُ لهم ليلة القدر كي ترتفع هممهم، ويتزود الفقير والغني منها بأضعافٍ من الزاد ليوم فاقتهم، وقبلتُ منهم يسير الطاعة، وغفرتُ لهم عظيم المعصية، كل ذلك كي يدخلوا جنتي، ويتنعموا بنعمتي، وقد رضيتُ على كل من دخلها، وكتبتُ له الأبدية فيها).

كان كلام الملك وخطاب الجليل لي كالماء البارد الذي صُب على قلبي الملتهب، وأحسستُ بتمام السعادة وكمالها حين علمتُ برضا الرب عني. كما عزز ذلك الرضا أن جاءني ألف ملك بعد أن استأذنوا مني، وفُتحت لهم الأبواب، ودخل كل واحد منهم يحمل باقة من ورود جنة

(١) مقتطف من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين ﷺ.
(٢) محمد/ ٦: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.
(٣) الأنعام / ١٦٠: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.



المليك المقتدر. أخبرني كبيرهم بعد أداء التحية والسلام أن: العلي الأعلى قد أرسلهم لتهنئتي، والمباركة بزواجي من الحور العين[1].

خرجنا نتجول سوية في حدائق القصر، وكان كل من يمر علينا يبدأنا بالسلام، حتى الورود والأشجار والطيور والأنهار. وخلال سياحتنا هذه اقتربنا من نهر يختلف عن الأنهار الأربعة الأخرى، ويفوقها في جماله وسعته، شواطئه من اللؤلؤ والزبرجد، وحصاه من الياقوت والمرجان، وحشيشه من الزعفران، وترابه من المسك، على جانبيه تقف الجواري بين ظلال الأشجار العالية ذات الأغصان المتشابكة، وكلما هبت ريح هادئة على تلك الأشجار، لا يبقى غصن فيها إلا وراح يغني بصوت عذب يطرب له سكان الجنان!

أما مياهه فكانت بدرجة من الصفاء حتى كنا نرى صورنا المضيئة فيه، رغم تلاطم أمواجه التي كانت تسبّح لخالقها بأنواع التسبيح، وتضم صوتها إلى أصوات الكواعب النابتة على ضفافه الخضراء. كان على شاطئه أيضاً قباب مضيئة من الياقوت والدر الأبيض، فتنعكس أشعتها فيه لتعطي منظراً ساحراً لا يمل منه من يشاهده، ولا يسأم منه ناظره.

سألتُ الحوراء عن اسم هذا النهر، فقالت:

ـ إنه أحد فروع نهر الكوثر.

تقدمنا في مسيرنا تحت ظلال الأشجار المنتشرة على شواطئ

---

(١) [الكافي] للشيخ الكليني/ ج ٨/ ص٩٨: (... ثم يبعث الله إليه ألف ملك يهنئونه بالجنة ويزوجونه بالحوراء، قال: فينتهون إلى أول باب من جنانه فيقولون للملك الموكل بأبواب جنانه: استأذن لنا على ولي الله فإن الله بعثنا إليه نهنئه، فيقول لهم الملك: حتى أقول للحاجب فيعلمه بمكانكم...).



الكوثر، وإذا بها تحيينا بأغصانها، وتدلي لنا بثمارها، علّنا نقتطف شيئاً منها[1]. تناولنا ماشاء الله لنا من ثمارها، وكل ثمرة نأكلها تعود بإذن الله إلى هيئتها وموضعها، فلا تنقص من شجرتها شيء.

نظرتُ إلى زوجتي الحوراء، وكلما أنظر لها يمتلأ قلبي بهجة وسروراً من جمالها، فقرأتُ الابتسامة على وجهها، وقلتُ لها :

ـ إنه مصداق قول الله تعالى : ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[2]، ألا ترين الثمرة قد قُلعت من موضعها، فأعادها الله كما كانت في مكانها .

انطلقنا حتى وقفنا تحت نخلة كانت جذوعها من الذهب الأحمر، وكربها من الزبرجد الأخضر، وشماريخها من الدر الأبيض. سمعنا نداءً من أحد رطبها يقول لنا :

ـ كلني يا ولي الله قبل أن تأكل غيري.

وما أن نويتُ تناولها حتى سقطت واحدة في يدي وأخرى في يد الحوراء، فحمدتُ الله على ذلك، وقلتُ لها كلي بسم الله. تناولتُها ولم يكن في داخلها نوى، وإذا بها أحلى من العسل، وألين من الزبد، لا توصف لذته، ولا يشبع منه آكله.

جلسنا بالقرب من الورود، فغمرت مشامنا روائحها العطرة، ومسامعنا نغماتها الطربة، وراحت تحيينا بألوانها الجذابة، وتفتح أزهارها الخلابة. التفتُ إلى الحوراء وإذا بها تحمل كأسا بيدها، قدمته لي، ثم قالت:

---

(١) الإنسان/ ١٤ : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.
(٢) الواقعة/ ٣٢ ـ ٣٣



ـ اشربه بسم الله.

تناولته منها، وشربتُ منه، فأحسستُ بلذة لا توصف، وطعم لم اتذوقه من قبل هذا، فسألتها:

ـ ما هذا الشراب يا عزيزتي؟ ومن أين أتيتِ به؟

ـ أتاني به أحد خدّامي، انه شراب مزيج من تسنيم، أما قرأتَ في القرآن ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[1].

ـ إذا كان هذا خليط من شراب تسنيم، فمن يشرب خالصه؟ وكيف سيكون طعمه؟!

ـ إن توحيدك في الدنيا لم يكن خالصاً تمام الخلوص لله، لذا فإن أصل هذا الشراب اختص الله به أنبيائه وأولياءه المقربون، ممن طهّروا قلوبهم من كل شيء سوى الله، وكانوا لا ينظرون إلى شيء إلا ورأوا الله فيه وقبله وبعده[2].

شكرتها على هذا الشراب، ثم أردفتُ قائلاً لها:

ـ رغم كل هذه النعم ولذاتها، لم يغادر فكري أمر مولاي الحسين، ورغبته في زيارة جنتي و..

قاطعتني بلهجة المتعجب المضطرب، وقالت:

ـ عن أي أمر تتحدث؟ أتقصد الحسين سيد شباب جنان الخلد؟ ـ نعم يا عزيزتي، وعلينا تحشيد ما لدي ولديكِ لاستقباله كما ينبغي، وبقدر ما نستطيع...

---

(١) المطففين/ ٢٧ ـ ٢٨

(٢) [تفسير الصافي] للفيض الكاشاني/ ج ٥/ ص ٣٠٢: (... والمقربون يشربون من تسنيم صرفا وسائر المؤمنين ممزوجا، قيل إنما يشربونها صرفا لأنهم لم يشتغلوا بغير الله).



الفصل التاسع

شاهد ومشهود

كان الجميع متشوقاً لساعة اللقاء، ومتلهفاً لرؤية من كان منبع نوره، وعنوان وجوده، متعطشاً لسماع حديث صاحب الشهادة العظمى، والمنزلة العليا، والدرجة الرفيعة، إنه ابن بنت خاتم الأنبياء...

أجل، كنتُ أرى في مملكتي حركة كبيرة وعمل دؤوب، والكل قد علم ما عليه فعله، فترى الملائكة والخدم كأنهم مضطربون، والحور والولدان متحيرون، ولكن الحقيقة أن الجميع كان يعمل بنسق ونظام، دون ملل وسئام، يفعلون ما يؤمرون به ممن هو أعلى منهم في الدرجة والمقام، والجميع فرح، ويلتهب شوقاً لرؤية سيده، والتشرف بزيارته، والاقتباس من نوره العظيم.

واقترب موعد اللقاء، ودعوتُ أصحاب بقية الجنان المجاورة ممن كانوا في مرتبتي، أو أعلى منها للحضور مع جميع سكان ممالكهم، كما دعوتُ أختي هدى للحضور، فأتتني مع أفراد مملكتها وزوجها الذي كان لا ينقص عنها في النور والجمال، وسألتها عن ذلك الأمر، فقالت:

ـ خيّرني ربي بين اختيار زوجي الذي كان في الدنيا، وهو اقل مرتبة مني، وبين اختيار زوج آخر[1]، فاخترتُ الأول لما رأيتُ فيه من النور

(١) [تفسير الصافي] للفيض الكاشاني/ ج٣/ ص٦٨: (عن الصادق ﷺ أنه سُئل عن=



والبهاء، ووفاءً لإخلاصه معي، ومداراته لي في عالم الدنيا، وها أنتَ تراه وقد رفعه الله إلى مرتبتي، فهو لا يقل جمالاً ونوراً عن جمالي ونوري.

رحبتُ بهما أشد الترحيب مع كل من جاء معهما، وراحت الجواري والولدان من أفراد مملكتي يخدمونهم بما لذ وطاب، وما كان ينقص من جنتي شيء!

ورغم زيادة أعداد الحاضرين والضيوف، فإن جنتي لم تزل على سعتها الأولى، ولم يحدث فيها أي ضيق في المكان، أو نقص بالخدمة أو تباطؤ فيها، بل كانت تزيد سعة وضياءً، إذ زادت الورود من ألوانها، والأشجار من أغصانها وثمارها، والأنهار من مجاريها، وراحت تبدو وكأنها ليست جنتي الأولى لعظيم ضياءها، وجميل مناظرها. أما الطيور فكانت تسيح وتجول في الفضاء لتملأه بتغاريدها العذبة، وتسبّح ربها بأصواتها الطربة.

وحان الموعد واللقاء...

وجاء الشهيد في موكب من نور على نور، وساد الصمت إذعانا للحق إذ جاء، ولا تقل صف لي المجيء، وكيف يستطيع من هو ذرة من شعاع الحسين أن يصف الحسين...!

جرت مراسم الاستقبال والترحيب، ودار الحديث، وسألته عن مسائل عدة، كان منها عن سبب تكريمي بزيارته لي في جنتي، فقال:

=الرجل المؤمن له امرأة مؤمنة يدخلان الجنة يتزوج أحدهما الآخر؟ فقال إن الله حكم عدل، إذا كان أفضل منها خيره، فإن اختارها كانت في أزواجه، وإن كانت هي خيرا منه، خيرها فإن اختارته كان زوجا لها).



ـ نحن الشهداء على أعمال الخلائق في الدنيا والآخرة[1]، فمن زارني في الدنيا عارفا بحقي، مخلصا لربي، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[2]، وشهدتُ له يوم القيامة بالخير، وزرته، وكنتُ شفيعه فيها.

قلتُ له:

ـ سيدي، وما حكمة البكاء عليكَ وأنتَ في نعمةٍ ومقامٍ يغبطك به الأولون والآخرون؟ ولماذا يثيب الله من بكى عليكَ، وأنتَ قد حلّقتَ إلى ربك في جنته يوم سالت دمائك الطاهرة على أرض الدنيا؟

أجاب سيد شباب أهل الجنة، فقال:

ـ البكاء دليل علاقة الحبيب مع محبوبه، والفقيد بمفقوده، وكلما زادت رابطة الحب بينهما، زاد البكاء لفقده ومصيبته، ونحن ندعو إلى كل ما يدعم هذه العلاقة التي إن ثبتت ثبت معها السير على طريق المحبوب، والاقتداء بسلوكه.

توقف قليلاً، ثم استأنف كلامه، وقال:

ـ وإنما يُثاب الزائر لي، والباكي على مصيبتي إذا كان عارفا بحقي،

---

(١) [الكافي] للشيخ الكليني/ ج ١/ ص ١٩٠: (عن بريد العجلي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال: نحن الأمة الوسطى ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه... فرسول الله صلى الله عليه وآله الشهيد علينا بما بلغنا عن الله عز وجل، ونحن الشهداء على الناس فمن صدق صدقناه يوم القيامة، ومن كذب كذبناه يوم القيامة).

(٢) [وسائل الشيعة ـ آل البيت] للحر العاملي/ ج ١٤/ ص ٤٩٨: (عن هارون بن خارجة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما لمن أتى قبر الحسين زائرا له عارفا بحقه يريد به وجه الله والدار الآخرة؟ فقال: يا هارون من أتى قبر الحسين عليه السلام يريد به وجه الله والدار الآخرة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر).



مخلصاً في عمله هذا لربي. أما بدون ذلك، فمهما أجهد نفسه، واتعب بدنه، وقطع المسافات على قدمه، لا ينفعه ذلك بشيء، ولا تناله شفاعتي يوم الورود على الحق المتعال، وإن ذرف بحراً من الدموع.

قام أحد المؤمنين من أصحاب الجنان المجاورة، فسأله قائلاً :

ـ وما معنى أن يكون الزائر لك في الدنيا عارفا بحقك؟ ولماذا جعلتم هذا الشرط لزوّاركم؟

قال :

ـ إن أي شخص تزوره ولا تعرف قدره، ومنزلته السامية، وكمالاته العالية، لا يتعلق قلبك به، ولا يكون حبك صادقا له، ونحن أهل بيتٍ لا يعرفنا شخص حق معرفتنا إلا أحبنا واتبع سبيلنا، وسلك طريقنا، كما إنه من عرفنا فقد عرف الله، ومن عرف الله أحبه، ومن أحبه أطاعه، وأخلص له، ومن أخلص له نجا من النار، وفاز بجنان العزيز الغفّار.

كان الجميع ينصت لكلامه، ويقتبس من أنوار حديثه، وبعد توقف قليل توجه نحوي، وقال :

ـ قد شفعتُ لوالدتك، وهي الآن تقضي بقية عقبات الصراط، وسوف تصلك إن شاء الله فيما بعد.

سررتُ كثيراً لهذا الأمر، ونظرتُ إلى أختي هدى فإذا بها تنظر لي أيضاً، قد غمرتها الفرحة، ولاحت على وجهها أنوار البهجة والسرور. شكرتُ إمامي على ذلك، ثم قادني طمعي إلى سؤاله الشفاعة لوالدي، فقلتُ له :

ـ سيدي، إن والدي كان في الدنيا يقيم مجالس العزاء على مصيبتك،



ويمشي راجلاً إلى مرقدك، ويصرف من أمواله الكثير في خدمة زوّارك، فهل له نصيب من شفاعتك؟

أطرق الإمام قليلاً، ثم قال:

ـ إن والدك الآن يحترق في جهنم، وحالته سيئة جداً، يستغيث ولا يُغاث، ويستجير ولا يُجار، ويتوسل بشفاعتي فلا يصل إليها.

ـ ولماذا يا مولاي لا يصل إلى شفاعتك؟

ـ إن نهضتي أراد الله لها أن تكون مدرسة خالدة لا ترضى بمظاهر الظلم والفساد، أرادها الله أن تضيء دروب الحق، وتنير سُبل الوصول إليه، أما والدك فقد شارك في وضع ستائر الظلمة أمامها، وحجَب الأمة أن تستنير بأنوارها.

استغربتُ كثيرا من كلامه، وزادت حيرتي في أمر والدي، فسألتُ مولاي عن توضيح هذا الأمر، فقال:

ـ صحيح كان يقيم مجالس العزاء، ولكن همه الأول والأخير إبكاء الناس، وإضفاء حرارة قصوى على مجلسه وإن كان ذلك بعرض مآسي مفتعلة، وأكاذيب مختلقة، تهين الحسين ونهضته. كان يعلم بكذب القارئ وتزويره لحقائق نهضتي، فلماذا يدعوه؟ ولماذا يصرف الأموال له ويكرمه؟ كان يمشي راجلاً أياماً طوالاً لزيارتي حتى يقول الناس عنه أنه محب للحسين، ولم يجعل لله نصيبا في نيته وعمله هذا، والويل لمن يعمل للمملوك، ويترك المالك المطلق.

ندمتُ كثيراً على طلب الشفاعة منه لوالدي، ولم يكن لي جواب أجيب به مولاي، فالحق معه وله. التزمتُ الصمت، ولم يتكلم أحد من الحاضرين، فاستأنف كلامه، وقال:



- إذا كانت المدرسة مشوهة بالأكاذيب، فكيف يمكن للأمة أن تنهل منها؟ وإذا كانت محجوبة بظلام التزوير، فكيف تستنير الأجيال بأنوارها؟ إننا أردنا أن تبقى مواقف واقعة عاشوراء حية إلى الأبد تنادي: **(ألا ترون الحق لا يُعمل به، وأن الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً)**[1]، وأردنا من نهضة عاشوراء أن تعلّم الأجيال كيف يكون الإخلاص لله، وكيف يكون العشق للقائه في ظروف المأساة، وتكالب الأعداء، وقتل الأبناء والأحبة. أردنا أن يبقى جواب زينب لابن زياد خالداً ما بقيت الدنيا، يطرق أسماع أهلها: **(ما رأيتُ إلا جميلاً)**[2]، يعلّمهم كيف تكون المرأة عزيزة أمام الطغاة بطاعة الله، وأن كل مصيبة ومشقة جميلة في الله. أردنا أن تُعرَض مأساة كربلاء كما هي في كل عام أمام الأنظار، كي يقتدوا من خلالها بالمواقف الحقّة لأصحابي وأهل بيتي، لا بالقصص المفتعلة علينا في بعض مجالس العزاء، ومن فوق منابرها.

نظر مولاي إلى الحشد العظيم الذي ساده الصمت والسكوت، ثم التفت نحوي وقد بدا عليه أثر تأسف عميق، ثم قال:

- إنني أتأسف كثيراً على والدك وأمثاله من الذين جرّتهم حبائل حب الدنيا إلى اصطناع القصص الواهية علينا، أملاً في جذب الناس لهم، ورغبة لأن تكون مجالس عزائهم مملوءة بالبكاء والنحيب.

---

(١) تاريخ الطبري/ ج٤/ ص٣٠٥/ مقتطف من خطبة الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء.

(٢) [أعيان الشيعة] للسيد محسن الأمين/ ج١/ ص٦١٤: (... فقال (ابن زياد) كيف رأيتِ فعل الله بأخيكِ وأهل بيتكِ فقالت ما رأيتُ إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتتحاجون إليه وتختصمون عنده...).



توقف مرة أخرى، ثم قال:

- وأسفي على عامة أهل الدنيا الذين كانوا يحضرون هذه المجالس، ويذرفون الدموع دون تمعّن وتدقيق فيما يُقال فيها، وكان الأجدر بهم أن يبكوا على الحسين، لا لأجل السيوف والرماح التي استهدفت جسده، ولكن لأجل الأكاذيب والقصص المهينة التي أُلصقت به وبأصحابه[1]..[2].

طال اللقاء، ولا يرغب أحد في نهايته، وقُدِّم للحاضرين ما شاء ربي من نعيم الجنة ومأكلها ومشربها، ولم ينقص منها شيء، وارتفعت درجات العديد منا بشفاعة سيد الشهداء، وزالت عن بعضنا سمة عتقاء جهنم التي رافقتنا منذ خرجنا منها، فأصبحنا لا نختلف عن بقية سكان الجنان من أصحاب المقامات العالية.

ثم غادَرَنا...

أجل غادَرَنا، ودموع الحاضرين تسيل أسفا على فراقه، وشوقاً للقائه مرة أخرى...

مضى وقت طويل، ونحن ننتظر قدوم والدتي إلينا، حتى جاء خبرها أنها في الطريق، وسوف تصل إلى مكان (ملتقى الأحبة) عند جنة من جنان الخُلد. توجهتُ مع زوجتي إلى ذلك المكان بعد أن أعلمتُ هدى بالأمر.

(١) [الملحمة الحسينية] للشهيد مرتضى مطهري/ ج١/ ص١٣: (إننا يجب أن نبكي الحسين ﷺ ولكن ليس بسبب السيوف والرماح التي استهدفت جسده الطاهر الشريف في ذلك اليوم التاريخي، بل بسبب الأكاذيب التي ألصقت بالواقعة).

(٢) لم يكن نص هذا الحوار مع الإمام الحسين ﷺ منقولا بالنص عن رواية أو كتاب معين، بل بالمعنى الذي جمعناه من مصادر معتبرة، ذكرنا بعض منها خلال الحوار.



وصلنا المكان المقصود، فكان جنة من أوسع الجنان، تفوق جنتي بكثير، وفيها أصناف من الملائكة أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وفيها من الخدم والجواري ما يزيد على مملكتي، بل على جميع الممالك المجاورة. تقدمنا أكثر بهدف الوصول إلى موقع اللقاء، وكانت الجواري النابتات على جانبي الطريق تلتمسنا لنتناول ما في أيديها من الكؤوس. أما الأشجار فكانت تنحني لنا بأغصانها علنا نقتطف شيئاً من ثمارها، والأنهار تنادينا بأمواجها أملاً بالاقتراب والدنو منها.

لم يشغلني ذلك كله عن الشوق للقاء والدتي وأحبتي من أهل بيتي، لا سيما بعد أن علمتُ أن عملي الصالح قد سعى في جمع من صلَح من عائلتي وهم الآن بانتظاري.

ما ألطف تلك اللحظات التي لا يستوعبها وصف واصف، ولا يعطي حقها ذو حق، إذ كانت الأفكار تلاعبني وتجرني بأمواجها يمينا وشمالا، فلا أعلم أيٌّ من أهل بيتي نجا، وأيهم هلك في نار نزاعة للشوى. كان هذا حالي في طريقي إليهم، وما غادرني شوق لقائهم، ولا لهفة رؤيتهم، حتى وصلتُ مشارف مستقرهم، فالتفتُ إلى الحوراء، وقلتُ لها:

- هل يمكن لكِ تصور كيف تكون مشاعر شخص يريد اللقاء بأهله بعد آلاف من السنين؟

استغربتُ من جوابها، إذ قالت:

- نعم إني أعلم ما تشعر به الآن.

- وكيف؟

- إنه عين الإحساس الذي كان لدي عندما علمتُ بدخولك جنتكَ، وقرب اللقاء بكَ بعد انتظار طال آلاف من السنين.



تذكرتُ ابني مرتضى الذي فارقته صغيرا حين رحيلي من الدنيا، ولم يكن قد تجاوز الرابعة من عمره، وتذكرتُ هديته لي بعد ثلاثين عاما من فراقه والتي كانت سبب نجاتي من عذاب البرزخ. لابد أن يكون قد نجا ونال جنان الخُلد، بل لعله في مرتبة أعلى من مرتبتي. تذكرتُ أختي وأخوتي وزوجتي و... ليتني أصل إليهم، وليتهم يكونوا جميعا الآن في انتظاري.

دخلتُ مع الوفد الذي برفقتي، واستقبلتنا الملائكة بأشد الترحيب، وأعذب الأناشيد، وساروا بنا إلى المقصد المنشود، واللقاء الموعود، فأطلّت علينا اشراقاتهم...

أجل، إنهم أهل بيتي بعينهم وحقيقتهم، عرفتهم وما جهلتُ واحدا منهم، ولكني افتقدتُ بعضهم. عانقتُ أول شخص منهم، وقد كان مقصدي الأول فيهم، وفاءً مني إليه، وأداءَ شكر له، ولطيف أن يتعانق الوالد مع ولده وكلاهما في سن الثلاثة والثلاثين[1]!

أما والدتي فكانت تبدو بنت الخامسة والعشرين من عمرها، وقد غشيها جمالها الباهر، وإشراق وجهها الزاهر. قامتْ وتقدمتْ نحوي، وضمتني إلى صدرها الذي ابتل بدموعها الجارية، وقالتْ:

- قد وفيتَ بوعدك لي يا سعيد كما وفيتَ مع أختك.

أجبتها وقد اختلطت دموعي بدموعها المتلألئة من فرحة اللقاء:

- الفضل أولا وأخراً لله الذي صدقنا وعده، ومن أصدق من الله قيلاً...

---

(١) [العظمة] لابن حيان الإصبهاني/ ج٣ م ص١٠٦٨: (عن النبي ﷺ أنه قال: يُبعث أهل الجنة يوم القيامة في صورة آدم جرد مرد مكحلين أبناء ثلاثين...).



ملاحظة:

إن أحداث ونص كلام وخطابات الشخصيات الواردة في هذه الرواية لم ترد بالنص، ولكن المطالب والمعاني الواردة فيها مستوحاة من آيات القرآن الكريم، والروايات، والأحاديث القدسية الشريفة المنقولة عن الرسول وأهل البيت ﷺ.



الفهرس

الكتاب الذي بين أيديكم يعرض معالم عالم القيامة والحياة الأبدية بهيئة رواية لطيفة جذّابة، معتمداً في أحداثها الرئيسية على ما ورد في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة. الرواية تحكي قصة رؤيا يرحل فيها إنسان إلى عالم البقاء الذي لا فناء فيه، وتصف كيف يمر بعقبات الآخرة ومراحل الحساب فيها، وكيف يلاقي تجسمات أعماله وملكاته، فيدخل في نارها ويذوق عذابها! ثم تناله شفاعة ذوي المقامات العالية فيخرج منها، ويعيش حياة الأبد، في جنان الخلد...

في أمواج القيامة





بئر العبد- خلف محطة دياب
تلفاكس: 42 49 27 (9611+) - 00 29 55 (9611+)
جوال: 49 01 80 (9613+) ص.ب: 25/91 بيروت-لبنان
E-mail: dar_asafwa@hotmail.com